
تاريخ
العرب والمسلمين
الغزالي
دار الريان للتراث
Bibliotheca Alexandrina
0125547

محمد الغزالي

سر تأخر العرب والمسلمين

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار الريان للتراث

بترخيص خطي من المؤلف

طبعـة خاصـة
بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار الريان للتراث

● دار الريان للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٣٦٥٩٩
● مصر الجديدة: ٢٠ شارع الاندلس . ت : ٢٥٩١٨٩٢/ ٢٥٩١٨٩١

سـر تأخر

العرب والمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الجزائرية

مقدمة مستوحاة من مضمون الكتاب

« أصول التغيير الإسلامي» : «المشكلة والحل»

بقلم : أبو جرّه

الحمد لله القائل في كتابه العزيز: «إنَّ اللهَ لا يُغيِّر ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل في حديثه الشريف: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار.»(*). وبعد :

إننا مصابون من داخلنا بأمراض شتّى ، لأننا ما زلنا نغلف الإسلام بشهواتنا ونعالج أمراضنا بغير كتاب الله تعالى، ونطبق «إسلاماً» توهمناه بوحي من هوانا وبعجز من إرادتنا، والحق أن الذي نحن عليه اليوم ليس إسلاما ... لأننا

(*) حديث متفق عليه من رواية أنس رضي الله عنه.

نمارس جملة من العادات الموروثة والتقاليد الممسوخة جمعناها «قشورا» من موائد مختلفة من الشرق والغرب، من بينها مائدة الاسلام بعد زعزعة أصوله وتشويه فروعه.

إن الدين أصبح في عالمنا اليوم «عملة ليس لها رصيد» مآله حتما إلى الإفلاس والانقراض إذا لم يتدارك أهله البقية الباقية فيغيروا بها أنفسهم ليغير الله تعالى ما بهم، وتلك سنّة الله في خلقه، اننا متأخرون جداً، وعاجزون جداً، وليس ذلك راجعاً إلى ضعف في منهاجنا الاسلامي فهو كامل وقوي وتام، ، لا أقول بشهادة المنظرين والمقتنين، إنما أقول بشهادة رب العالمين الذي يقول عن المنهج الاسلامي «**اليَوْمَ أكمَلْتُ لَكُم دينَكُم وأَتْمَمْتُ عليْكُم نِعْمَتِي ورَضِيتُ لكم الإِسلاَمَ دِيناً**».

ومظاهر التأخر كثيرة إلى درجة الفزع والرهبة،فهي كما يقول الإمام محمد الغزالي في هذا الكتاب «... حكام يتهارشون على الدنيا، ويتقاتلون على المناصب، أجهزة الشورى صفر، العدالة الاجتماعية مضطربة، قد تنكب بعض الأقطار بمجاعات فلا تجد الغوث، العلم الديني انحصر في فلسفات كلامية لا تمس القلوب، أو مسائل فقهية ليس لها عند الله وزن... وقد سقط العباسيون ـ كما سقط من قبلهم الأمويون ـ ليؤكدوا حقيقة علمية ثابتة وهي: أن العرب لا يشد كيانهم إلا الدين، فإذا خرجوا عليه تيقظت جاهليتهم فهلكوا...»

فما هي أسباب تأخر المسلمين؟ وما هو العلاج لما نحن فيه من ذل ونكسة وهوان..؟!

قرأت هذا الكتاب قراءة ناقد يبحث عن الحل لأزمة أمته ويفتش عن المنافذ الأمثل (الأخطر) التي تسربت منها أعتى أدوائنا والتي بسببها أصبحنا «عبيدا» وأرخص من العبيد بعد ان كنا سادة العالم وأساتذة الكون... فتبين لي بعد القراءة المتأنية أن مضمون الكتاب يشخص الداء ويقدم الدواء في شكل

«دفقات إيمانية» غلبت على الشيخ الفاضل ـ أطال الله في عمره ـ فأفقدته السيطرة المنهجية (الأكاديمية) على الموضوع، ومع ذلك ، بل وبسبب ذلك، جاء الكتاب أكثر حرارة وتأثيرا لأنه نابع عن عاطفة إسلامية صدمت بواقع أمتها، وعن عقل مسلم ظل ينقدح زناده بنور الحق على امتداد نصف قرن داعيا أمة الاسلام إلى احتضان كتاب ربها مرة أخرى لتخرج من ظلمات الطاغوت إلى نور الاسلام... ولا نزكي على الله أحدا.

قلت بعد القراءة المتأنية بدا لي أن أستخلص ـ من الكتاب نفسه ـ أسباب تأخر المسلمين وبعدهم عن مستويات الحضارة الإسلامية والتقدم التكنولوجي الغربي، ثم النظر في إمكانيات العلاج من منظور إسلامي بحت.

أولا : أسباب تأخر المسلمين ستة، وهي :

1 ـ **الاستبداد السياسي** : ونعني به فساد أجهزة الحكم والتحول عن الخلافة إلى الكسراوية الضاغطة، والفرعونية المقنّنة، والقارونية الكانزة، وإغفال مبدأ الشورى وتسلط الفرد (الديكتاتورية)، وفقدان المال لوظيفته الاجتماعية، ثم انفصال الدين ـ تبعا لذلك ـ عن شتّى أقضية الحياة، وحصره بغباء بين أركان المسجد (الذي فقد هو الآخر رسالته).

2 ـ **فساد التصور الاجتماعي** : بسيطرة التصورات الجاهلية على مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، وأخطرها المرأة. فقد عمدت المجتمعات «الاسلامية» المعاصرة إلى واحدة من اثنتين :

ـ إما انها سحبت المرأة إلى الجاهلية الأولى (جاهلية ما قبل الاسلام).

ـ واما أنها شدتها بعنف إلى الجاهلية الثانية (جاهلية القرن العشرين).

والجاهليتان كلتاهما مرفوضتان، فالمرأة ليست جسدا يلفُّ في أثوابه ويوارى خلف الستائر والأبواب،وليست كذلك «تحفة» للتسلي وإزجاء أوقات الفراغ،

ولا هي بضاعة رخيصة في أسواق النخاسة: بل هي كائن حيوي فعال ومنتج لها حرية حددها الله تعالى في دستوره، وأي تحرر آخر خارج هذا المجال فهو تمرد على شرع الله عزّ وجل... وها هي البشرية كلها تجني من ثمار هذا التمرد.

3 ـ **اشتغال الجهلة والمشعوذين بالاسلام (وبالدعوة اليه)** : في غياب العلماء والفقهاء أصبح أكثر دعاة الاسلام من هذين الصنفين (الجهلة ـ والمشعوذين)، ومظاهرهم ـ إلى جانب انحرافهم السلوكي الذي يشوه صورة الاسلام كليا ـ أنهم يشتغلون بتغليب الفروع على الأصول، وطغيان الفقهيات العقلية (الفلسفات والايديولوجيات) على فقه النفس (التقوى ـ التوبة ـ الاستقامة ـ الإحسان ـ الطمأنينة... الخ) وحشر الاسلام في الشعائر دون الشرائع وفي العبادات الفردية دون التعامل الاجتماعي. وأهم من ذلك وأخطر وأنكى ظهور الحركات والجماعات والفرق والطوائف... التي تزعم كلٌّ لنفسها الصواب والسداد وتخطئ غيرها وربما كفرته وحاربته وعدته خصما حقيقيا أخطر عليها من اليهود والنصارى وتيارات الالحاد...

وذلك تراث قديم من عهد المعتزلة وبعض الأشعرية الذين كانوا يملكون عقولا تفكر «وتتفلسف» ولكنهم للأسف لم يكونوا يملكون قلوباً تؤمن «وتطبق».

4 ـ **فتنة الناس بالفلسفات والآراء الكلامية** : منذ أن بدأت حركة الترجمة إلى العربية(*) من الفارسية واليونيانية والرومانية والهندية... في العصر العباسي، بدأت تتسرب الى الفكر الاسلامي آراء الوثنيين وفلسفات الالحاد، ولم يستطع التراث الاسلامي التخلص منها نتيجة مؤمرات الباطنية التي حيكت ضد الاسلام وأهله، وهكذا تحول الفكر الاسلامي من التصور الاعتقادي إلى التصور

(*) ليس العيب في الترجمة نفسها فذلك تفتح على التراث البشري تقتضيه الضرورة الحضارية، إنما العيب يكمن في ترك ما بأيدينا بدعوى أنه قديم والانبهار بالوافد لأنه جديد، وهذا الذي حدث قديما ويحدث اليوم!

الفلسفي، وأصبحت ـ تبعا لذلك ـ الحضارة البشرية الاسلامية في عهودها المتأخرة خليطا من التراث اليوناني والقانون الروماني والفلسفة الهندية والمكر اليهودي والحقد الصليبي... وكل ذلك كدر، أو عمل على تكدير، صفو النبع العذب للتراث الاسلامي الرباني. ذلك أن القدر المطلوب توافره شرعيا كحد أدنى لإنشاء الفرد المسلم من منظور العقيدة أمر لم نحاول تحديده بعد، أو أننا لم نعمل بجد على تأصيله فينا لطغيان الخلافات المذهبية، والاستخفاف بكبار علماء الاسلام وفقهائه وضرب بعضهم ببعض نتيجة ترف عقولنا «ايديولوجيا» على حساب فقر أرواحنا «عقائديا»، بمعنى أننا نملك قدرة هائلة على الاستدلال العقلي النظري، ونحن عاجزون تماما عن تذوق حلاوة الإيمان لانحراف تصوراتنا وتشويه عقيدة السلف.

5 ـ **الغزو الثقافي (بشقيه الصليبي اليهودي ـ والشيوعي الالحادي)** : حين أصيب المسلمون بنكسة خلقية، ولوثة فكرية، واستبداد سياسي، وانحدار اقتصادي، وتفسّخ اجتماعي، وتدهور ثقافي، وفراغ روحي... كان من السهل على أجهزة الغزو أن تملأ كل ذلك بالخرافات والأباطيل والأوهام، فخفَّ شعور المسلمين، وتبلَّد حسهم، وضاق أفق تفكيرهم، وقست قلوبهم، فانسلخوا عن الفطرة تماما وتنكروا للحق، ولو كان من عند الله تعالى.

قلت عندما آل أمرهم إلى ذلك انقضَّ عليهم أعداؤهم عسكريا وسياسيا وفكريا واقتصاديا... واستغلت المذاهب المادية أخطاء المسلمين وانحرافاتهم الفكرية والسلوكية وحققت بذلك انتصارات كبيرة جدا، وجلبت اليها الشباب الاسلامي الخاوي من عقيدة التوحيد وملأتهم بالتصورات الإلحادية بما قدمت لهم من حلول سريعة لمشكلاتهم المادية الطارئة.

أما الحضارة الغربية فقد عرضت على المفتونين في البلاد الإسلامية مذاهب براقة توهن العقيدة وتقلل من شأن الاخلاق، وربما ألغتها، وتشيع في الغرائز روح

«الثورة الجنسية» والتمرد الفكري باسم العلم على أيدي فرويد وداروين وسبينوزا وكارل ماركس وجون بول سارتر...

6 ـ **فقدان عقيدة الولاء للإسلام** : أتى على الناس حين من الدهر أحلُّوا فيه عقيدة العروبة محل عقيدة الإيمان، وزاحمت القومية العربية «القومية الإسلامية» منذ أن ثار العرب على الخلافة الإسلامية (التركية)، وكانت تلك عودة إلى الجاهلية الأولى وردة إلى ثارات عبس وذبيان ، والأوس والخزرج، وبكر وتغلب... فضاعت معالم «الجنسية الاسلامية» وظهرت مكانها القبليات والوطنيات والتكتلات الجاهلية والولاء الحزبي...

وحلّت الأنظمة العلمانية (اللادينية) محل النظام الاسلامي والمنهج الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهكذا تقهقر الركب الاسلامي الحادي وتخلّى عن قيادة البشرية، بل عن قيادة نفسه، ليتولى الملاحدة وأهل الكتاب قيادة المسلمين...

ولكن : إلى أين ؟!

ثانيا : علاج التأخر (أو حل أزمة المسلمين).

هناك سبع مراحل متكاملة ومتداخلة لا بد من الإحاطة بها علماً وعملاً إذا كان في نيَّتنا الخروج من محنتنا والتخلص من أزمتنا والبرء من أمراضنا والشفاء من العلل التي أحاطت بنا من كل مكان.

هذه المراحل السبعة هي :

1 ـ **ضرورة غربلة تراثنا الضخم ومراجعته** : هذا العمل ضروريا، وله أولوية خاصة لأنه يدعم أمتنا ثقافيا وينجيها من مزالق كثيرة أوقعها فيها جيلنا السابق والجيل الذي قبله (لكون أكثر مفكريه كان مفتونا بالغرب أو بالشرق

وكانت ثقافتهم الاسلامية ضحلة إلى جانب ثقافتهم الافرنجية)، وإذن تصبح الغربلة والمراجعة من الضرورات الملحة لأنها تعطينا الفهم الصحيح للاسلام الذي يستوعب بمرونته وواقعيته وشموليته مختلف التجارب البشرية. وطبعاً لا بد من تحديد أسس «غربلة التراث» وتحديد رجالات ينهضون بهذا الواجب، ذلك ان الاستسلام للواقع المرتَدّ سيطر على فقهنا عدة قرون حتى استكان هذا الفقه فرضي باغتصاب السلطة وسلمها للحكام المتغلبين الذين سُلِّطوا على رقاب أمتنا نتيجة ظروف استثنائية طارئة تولى خلالها «إدارة الفقه» علماء سوء رأوا الجبن أنجى لهم فآثروا الصمت ـ كما يقول الإمام محمد الغزالي في هذا الكتاب ـ ورضوا بالانحرافات الاجتماعية والمسخ الاخلاقي وسايروا ذلك حتى ظنه الناس من الدين، والدين منه براء.

وقد حان الوقت لإيقاف هذا النزيف القاتل لتبدأ مسيرة الاسلام وتنطلق مواكب التوحيد بوضوح وقوة وبصيرة.

2 ـ **دراسة الحضارة الجديدة ومنجزاتها** : للاستفادة من تجاربها في دعم مقرراتنا الاسلامية (البرنامج الاسلامي للتغيير)، بالتركيز على الجانب «التكنولوجي» خاصة للنهوض بأمتنا من كبوتها العلمية وإعطائها نفسا ابداعيا جديدا يخلصها من التبعية والاستعمار الاقتصادي.

3 ـ **تحصيل الحد الأدنى من الثقافة الاسلامية بالنسبة للفرد** : باكتساب الصفات الثمانية الواجب توافرها في المسلم لأنها تمثل حقيقة الإيمان، وتحدد علاقة المسلم بربه، وهي: الخشية، والرجاء، والصبر، والشكر، وتوفير الأسباب، وحب الله، والذكر، والتوبة. ويكون ذلك كله ـ بعد الإيمان ـ في إطار الحكمة والعدل والتوازن. إذ يجب أن يكون هناك «ميزان إسلامي» لضبط الحياة على مختلف الأصعدة الحياتية وتنظيمها طبقا لسنن الكون ونواميس الحياة «المسبَّحة».

4 ـ **تقديم الاسلام كاملا للناس** : إذ لا بد من تخطيط سياسي دقيق لإعادة بناء الأمة الاسلامية، هذا التخطيط يقوم على ما يلي :

أ ـ إن علوم الدين ليست كلاما نظريا في العقائد، ولا سردا تافها لأشكال الطاعات وأحكام الفروع الفقهية. وإنما هي منهج متكامل للحياة المثلى التي ارتضاها الله للعباد: «... **وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً**».

ب ـ إن الاسلام ليس حزباً سياسيا قصاره طلب السلطة وإنما هو «برنامج» شمولي وواقعي وحركي متكامل يبدأ بـ «صناعة» الفرد ويسري في محيط الجماعة طبقاً لمنهج سنّي جربه الرسول ﷺ وأثبت جدارته في الحكم وفي القيادة، وفي سياسة الشؤون الحياتية العامة التي لا تتوقف عند التشريع للبشر فحسب بل تتجاوز ذلك إلى الحيوانات والنباتات والجمادات، من قبل الميلاد إلى ما بعد الموت.

جـ ـ إذا فسد القلب فسدت الحياة نفسها، وإذا انفصل المجتمع عن عقيدة الإيمان هلك، ولا فائدة في علم لا يجعل مرشده الدين (ولا خير في عقل لا يستند الى النقل).

د ـ إن تعمير الأرض جزء من رسالة الإنسان على ظهرها، وهو جزء من العبادة التي من أجلها خلق الانسان، وكل ذلك جزء من العمل والكدح الذي يصون به الانسان نفسه وأهله وشرفه، ويلقى به ربه «**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ**..»

وقاعدة تعمير الأرض لا تتأتّى إلاّ بـ «الخلافة» ، والخلافة لا تتأتّى إلاّ بتطبيق شرع الله تعالى وكل أشكال الحكم الأخرى لا تدخل تحت أمر الله عز وجل: «**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**».

هـ ـ إن الله لم يخلق الانسان ليشقى ويجوع ويعرى، بل خلقه مكرما وسخر له ما في البر والبحر، وأحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث ويسر له أسباب الزينة والجمال في إطار شرع محدد المعالم قاعدته النهي عن اتخاذ العباد بعضهم بعضا أربابا من دون الله : «**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**...» الآية.

و ـ إن كل علم يطوي مسافة من تخلف المسلمين هو من أركان الدين وفرائض العبادات العينية والكفائية ، وهو أولى من النوافل، نوافل العبادات ومسائل الاختلاف التي برع فيها الفارغون واشتغل بها المتنطعون وأدمنها المتفيقهون.

5 ـ **إيجاد علماء من طراز رفيع** : على أيديهم تعرف الأمة دينها وتتخلص من تيهها وتخبطاتها وقحطها الثقافي وخوائها الروحي... وتتعلم الدين الحق. فتحكم ـ إن حكمت ـ حكما صحيحا، وتقود ـ إن قادت ـ قيادة رشيدة. لأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها (قرآنا وسنة).

6 ـ **فقه العبادة** : العودة بالأمة إلى مفهوم العبادة القرآني، وكسر هذا الإطار الضيق الذي «حُبست» فيه العبادات حتى انحصرت في قواعد الإسلام الخمس. «إن الله يوصي الجماعة الاسلامية أن تتعاون على البر والتقوى ، وأن تتواصى بالحق والصبر.. وكان المفروض في مجتمع حكيم متزن أن تفشو فيه الأجهزة التي تيسر الزواج لتمنع الزنا، والتي تجمع الزكاة لتحارب الفقر، والتي تتعهد الأوقات لتقيم الصلوات، والتي تقيم المدارس لتنشر العلم، والتي تؤسس المطابع لنشر الكتاب... الخ».

بهذا نفهم أن العبادة في الاسلام ليست هي القواعد الخمس فتلك «ركائز الاسلام» أو مرتكزات الدين ودعائمه وأسسه التي يقوم عليها، وبعد قيامه، تُصبح كل حركة تصدر من المؤمن عبادة لله تعالى فلا مجال للتلاعب بمشاعر

النّاس ولا وقت لإضاعة الوقت ولا وجود في المجتمع الاسلامي للفارغين والفارغات: «**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**».

7 ـ **الوحدة الإسلامية طريق طويل ولكنه ضرورة حياة** : ربط الولاء بالدين واجب، والاستضاءة بشرائع الاسلام وشعائره ضرورة حياتية، وإدراك أن العلم بالدين كله لا يتم عن طريق تجارة التجزئة فريضة من الفرائض، وكذلك إدراك أن الصورة الكاملة للاسلام إنما تتم على النحو السلفي الأول فريضة أخرى.

والعقل الاسلامي المعاصر يجب أن يرتفع الى مستوى الشمول في القرآن الكريم حتى يستطيع إعادة بناء الأمة الواحدة التي لا تحد رقعتها على سطح الأرض خطوط الطول والعرض، إنما تحدها صيحة الحق «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله».

والطريق الى ذلك يبدأ بتوحيد الثقافة: توحيد الفكر الاسلامي. توحيد التصورات والمفاهيم الأصيلة (الأساسية).

ـ مفهوم الولاء للاسلام: «**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...**».

ـ مفهوم الأخوة الإسلامية : «**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...**»

ـ مفهوم الأمة الإسلامية : «**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**».

ـ إعادة النظر في بعض الجوانب من «فقه الحركة» لترشيد الصحوة الاسلامية المباركة والانفتاح الذكي الواعي على العالم من حولنا.

ـ أما إحياء لغة القرآن وبعثها في «كومونولث اسلامي» فمسألة مفروغ منها لأنها وسيلة أساسية في القضاء على التخلف وقطع دابر التبعية واجتثاث جذور

الغزو بشتى أنواعه ومختلف أشكاله لا أقول عند العرب وحدهم بل لدى الأمة الاسلامية كلها. لأن العربية أصل من أصول الاسلام.

وبعد :

يبقى من حقنا أن نطرح السؤال الموالي :

لماذا تقام لليهود وحدة، وللنصارى وحدة، وللملحدين «كتلة» ولرجال العصابات وشذاذ الآفاق ولاء... ولا تتعثر إلاّ وحدة المسلمين، ولا يتّهم إلاّ الولاء للاسلام؟ ثم لماذا عادت الشيوعية إلى مزدك وماني فلم يتهمها أحد بالرجعية، وعادت الأنظمة المعاصرة الى «حمورابي» وزرادشت فلم يتهمها أحد بالرجعية...

ولما عاد المسلمون إلى ربهم سبحانه وتعالى كانوا هم الرجعيين وهم «الجامدين» وهم العصا في لوالب عربة الملك، ولا بد أن تكسر العصا ليصل الملك بعربته إلى قمة المجد الحضاري؟!

إنها مؤامرة عالمية على الاسلام.

لأن الاسلام ـ بكلمة واحدة ـ هو : «**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...**»

هذا الكتاب أمانة في عنقك، فأرجو، أخي المسلم، أن تقرأه باهتمام وتفكر في مصير أمتك وتعمل، ما أمكنك العمل، لنفض الغبار عن وجهها الكالح، فـ «مستقبل الاسلام رهين ـ بعد مشيئة الله ـ بجهود أبنائه لا بإرادة أعدائه، فالمسلمون لم يهزموا قط ولن يهزموا أبداً إلاّ لخلل في صفوفهم هم...»

ونحن مطالبون بإزالة الخلل من صفوفنا.. مطلوب منا فقط توحيد الصف، بماذا؟ بنعمة الله علينا... «**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا...**».

متى قال لنا ربنا هذا الكلام؟
قاله مباشرة بعد قوله تعالى : «**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا...**»
هذا قولي.. فليبلغ الشاهد منكم الغائب.. اللهم هل بلغت.. اللهم فاشهد.

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

بسم الله الرحمن الرحيم

في فرص الفراغ بين الدروس والمحاضرات والافتاء ـ ومّا أقلها ـ استطعت أن أكتب فصول هذا الكتاب الوجيز! وقد كان لي سابق عهد بخوض موضوعه. والتعرض لقضاياه ، إلا أنني هنا كنت أكثر صراحة وأكثر تحديدا.

ولا تزيدني الأيام إلا ثقة في الخطة التي انتهجتها لخدمة الإسلام وتبليغ رسالته ورد العدوان عن حقائقه النقية.

في أول عهدي بالعمل في الجزائر ، وافتتاح جامعتها الإسلامية أحسست أن متاعب الدعوة الإسلامية التي ألفتها تتكرر في المغرب الإسلامي والمشرق الإسلامي على سواء! فأزمة الدعاة الواعين شديدة، وأهل الذكر الجامعون بين القراءة والفقه قلة نادرة، والاستعمار الثقافي والاجتماعي والسياسي يعمل حثيثا على بلوغ أهدافه في أرض تكاد تكون خلاء من الحراس!

بل ان الحراس أحيانا يسيئون الى أنفسهم وأهليهم وأرضهم لأنهم يدركون الأمور على غير وجهها، أو تتملكهم العاطفة التي جعلت الد بة تقتل صاحبها!

من أجل ذلك كتبت فصول هذا الكتاب على عجل، ومع أني نشرت طبعته الأولى في القاهرة الا أنني رحبت بإعادة طبعه في الجزائر، والحق أنها به أولى، لأن المشاعر التي ملكتني كانت وليدة معاناة لأحوال أمة أنهضها الإسلام من كبوتها، ونصرها على أخبث استعمار في الأرض، فلما هزمته في ميدان القتال استدار يحاول ختلها في ميدان البناء، وصنع المستقبل!

وهيهات فالشعب المسلم كان بفطرته يتحسس طريقه الى مستقبله. وكان بعقيدته يقصي سماسرة الإلحاد والانحراف الذين يريدون غشه والعبث بمستقبله...

ولكن حاجة الشعوب الإسلامية كلها، لا الشعب الجزائري وحده هي إلى دعاة يعرفون الإسلام معرفة صالحة، ويفرقون بين تعاليمه السماوية وما التبس بها من أهواء العامة وشهوات المتسلطين على اختلاف القرون.

ولعل ما أجملته هنا أكون قد فصلته في مواطن أخرى، والله من وراء القصد.

محمد الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يستطيع الأتقياء أن ينقذوا المدنية الحديثة، وأن يكتشفوا المعايب التي تخدش قدرها... أو تسقط مكانتها! فهل يجديهم هذا الموقف في جبر كسورهم وإزالة تخلّفهم؟

إن الفقير يستطيع أن يهجو الغنيَّ وأن يفضح سوْرة الطغيان في مسلكه! فهل ذلك نافعه؟ وهل ذلك الهجاء يسدّ جوعته ويستر عورته؟

من أمد بعيد أحسست أننا مصابون من داخلنا ، وأن مواريثنا الفكرية لا تنبع من ديننا، بل من تعاليم دخيلة على هذا الدين...

ومن أمد بعيد أحسست أن هناك ازورارا عن توجيهات الإسلام الحاسمة في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية تمشيا مع أهواء فرد من الأفراد، أو طبيعة جنس من الأجناس، وأن العبادات فقدت روحها، وأصبحت رسوما ميتة، وأن الأخلاق سقطت عن عرشها، وأمسى تعامل الناس وفق غرائزهم،

وأن الصراع العالمي ليس بين الإسلام وغيره من أهواء البشر! وإنما هو صراع بين تطبيقات غبية للإسلام ومسالك بشرية يقظة جريئة..

إن أهل الكتاب الأقدمين حرفوا الكلم عن مواضعه على نحو ما، ونحن ـ على امتداد عدة قرون ـ نغلّف الوحي بأهوائنا حتى ضاع بريقه. وأكاد أقول لسكان القارات: إن ما ترون في شئوننا ليس ما أنزل الله من كتاب ولا ما قدم رسوله من أسوة، إن ما ترون هو عوج أمة نسيت ما لديها ومضت مع هواها..

وقد بلغ من ضراوة الحجب التي رانت على بصائرها أنها تقاوم من يريد العودة بها إلى طريق الله، أنها تتعصب لمواريثها من تقاليد الانحراف والعجز، وتتأبّى على عناصر الحق والرشد، التي عرفها سلفها فكانوا الأمة الأولى في العالم.

وأنا أعرف صدى هذه الصيحة في نفوس كثيرة!.

سيقول كثيرون: رجل متدين يريد العودة بنا إلى المسجد! أو يحدثنا عن الروحانيات والدار الآخرة..!

وما أنكر صلتي بالمسجد ولا تعلق قلبي به! وما أنكر شعوري بالدار الآخرة، وضرورة الإعداد لها!

إن إنكار الحقائق ضرب من السفه، والايغال في الأوهام لا خير فيه..

ولكن حديثي في هذا الكتاب عن أغلاط سياسية واقتصادية واجتماعية لها جذورٌ ضاربةٌ في الماضي البعيد والقريب..

وقد سبق لي الكلام في هذا الموضوع مثنى وثلاث، في تفصيل طويل.

بيد أنني هنا لجأت إلى نهج أكثر إفصاحا، وذلك لأن دعاة إلى الإسلام يَحْدون شعوبه المثخنة إلى ذات الطريق الذي آذاهم وجرَّ عليهم هزائم هائلة.

وقد رأيت أصوات الجهال تعلو، تساندها قوى شريرة، وأصوات المصلحين تخفت لأن أعداء الحق يخشون عواقب صحوة حقيقية للأمة الإسلامية:..

بل قد يكون من أعداء الإسلام أشخاص يلحون في الانتماء إليه، والحديث عنه!

أي حديث؟ حديث يتناول مشكلات موهومة ويتجاهل مشكلات قائمة، حديث يزيح الغبار عن الصورة الموجودة، ولا يعيد تشكيل هذه الصورة وفق ما للإسلام من ثقافة ذاتية وسياسة قويمة.

إنني أعلن أن ولائي الأول والأخير للإسلام، كما بلغه نبيه، ونفذه خلفاؤه، لا كما فعله الحاكون باسمه، أو الجاهلون به، مهما بلغت مزاعمهم.

محمد الغزالي

أين الخلل ... ؟

فزعت لما سمعت قائلا يقول: إن ألف مليون صيني قدرت الشيوعية على توحيدهم في دولة كبرى على تنائي الديار واتساع الأقطار، أما الألف مليون مسلم فيبدو أن الإسلام عاجز عن جمع كلمتهم وحشدهم تحت راية واحدة..!! قلت: ويحك، أبصر ما تقول..! قال: هل ذكرتُ إلا الواقع؟ فأجبته على عجل: لو كانت الشيوعية تجمع لسدّت الفجوة بين الصين وروسيا، أو بين الروس وأوربا الشرقية التي تعنو لهم راغمة..! قال: هناك أسباب عارضة لهذه الجفوة! قلت: أولى بك أن تلتمس هذه الأعذار للأمة الإسلامية، بدل أن تتهم الإسلام نفسه بالعجز عن لمّ الشمل وتكوين الوحدة الكبرى...! وعدتُ إلى نفسي أفكر وأراجع وأتدبّر! إن الأمة الإسلامية تعاني صدوعا هائلة، وهي الآن موزعة على أكثر من سبعين قومية، أو سبعين جنسية سياسية بلغة هيئة الأمم ولغة «جوازات السفر» على سواء!! والإسلام سواء كان عقيدة أو شريعة عُملة ليس لها رصيد، وأتباعه يُنال منهم ولا ينالون ويجار عليهم ولا يجيرون! وذئاب الشرق والغرب تغير عليهم فتفترس ما شاءت من القطعان السائبة دون أن يتمعّر وجه!!

إن إحراج يهوديٍّ واحد في روسيا يثير عاصفة من الكلام حول حقوق الإنسان، وحول عداوة الساميّة، أما مقتل المئات والألوف من المسلمين في إفريقية وآسيا وأوربا فالخطب يسير! وقد يثار بعض اللغط ثم تُنسى المأساة، وأول

من ينساها المسلمون أنفسهم...!!! ما سرّ هذا الضياع والشتات؟ ما وراء هذا التفكك والتبلّد؟

الحق أن الأسباب كثيرة بين سياسية واجتماعية وثقافية، وأنها بدأت من قديم، ولكن الكيان الحيّ قد يغالب الجراثيم الوافدة ويهزمها، وقد يصاب بها ويتماسك تحت وطأتها، وربما استطاع العيش زمانا وهو يحس بها ويعالجها بمسكّنات موقوتة. بيد أنه سيقع فريستها آخر الأمر، ما دام لم يتناول لها دواء يجلب العافية، ويحسم البلاء..! كان المسلمون من مئتي سنة فقط أشدّ هيبة وأعز نفرا ـ مع ما تلاحق عليهم من هزائم ـ كانت الأساطيل الأجنبية لا تمر بالبحر الوسيط إلا بعد أن تستأمن من دوله الإسلامية إذ كان المسلمون يفرضون ضرائب على السفن المارّة بشواطئهم! وسمعت في مجلس مؤرخين وساسة ـ وأنا بالجزائر ـ أن جورج واشنطن لما انتصر في حرب الاستقلال واستقرت الأمور للولايات المتحدة، كتب إلى حاكم الجزائر يومئذ ليطمئن على سلامة السفن الأميركية! مبدياً مودّته .. ـ وتوجد نسخة بالإنكليزية لهذه الرسائل ـ كما رفض الجزائريون مهادنة بعض الدول الأوربية، برغم توصية الخلافة العثمانية، وأوقعوا بها هزائم مذلة...! كان[1] ذلك من قرنين اثنين!! أما اليوم... فالحديث ذو شجون..

(1) لعل تفصيل الوقائع يكون مفيدا. في يوم السبت 1210/21 الموافق 1795/9/5 م عقدت معاهدة بين «الداي حسن» حاكم الجزائر وبين جورج واشنطن رئيس الولايات المتحدة كي يؤمن الجزائريون الطرق البحرية للسفن الأمريكية، وكان الأسطول الجزائري سيد هذه المناطق يومئذ..! والداي حسن هو باني مسجد كيتشاوة» شكرا لله الذي نصره على الإسبان في معركة كبيرة، وقد فرض عليهم أن يذهب وفد منهم إلى الآستانة كي يلقي الخليفة حاملا معه جرتين من الماء(!) وذلك لأن القائد الإسباني كان قد هزم المسلمين قبل ذلك، وحمل معه جرتين من ماء مدينة وهران إلى ملك إسبانيا علامة على أن الصليبيين سوف يرثون القطر كله، فلما انهزموا، ألزمهم الداي حسن بحمل جرتين أخريين، وتقديمها إلى خليفة المسلمين رمزا لانهزامهم أمام المسلمين! إنها تراث قديمة جديدة! ولسنا المسئولين عنها، فمن الوضاعة أن يقدم الرومان من أوربا فيقاتلوا نبينا في مؤتة وتبوك. وفي سوريا ومصر وفي الأناضول والمغرب، ثم يجيء بعدهم أحفادهم المستعمرون الجدد ليكرروا العدوان نفسه ثم يقولون في صفاقة: إن الإسلام دين عدوان!! ما أخرجكم أنتم من بلادكم؟؟.

والخلافة الإسلامية لم تلق حتفها في حادثة تصادم، ولم تفقد حياتها عقب اغتيال مفاجئ.. كلا كلا، كان نظام الخلافة يترنح ترنّح السكران الفاقد الوعي، وكانت الأدواء الفاتكة تسرح في جسد الأمة كلها وتهدّ قواها هدّاً.

ومن ثم فإن السلطان عبد المجيد بعد ما وقع في قبضة الإنكليز لم يفعلوا به شيئا، كان أتفه من أن يؤاخذ! لقد تركوه لقومه أو لعملائهم الذين زهدوا في الخلافة وآثروا الارتداد...!! وهكذا تلاشت الدولة الإسلامية الكبرى، لقد غرقت في دوامة من أخطائها قبل أن تنالها سيوف الأعداء..!

والبحث عن أسباب الوفاة مطلوب. إن الإسلام ختام الرسالات السماوية، وتاريخ الأولين في كتابه يحتلّ أكبر جزء منه، وذلك لتعرف الأمة الأخيرة لماذا هلكت أمم ونجت أخرى؟ ويبدو أن المسلمين يقرأون قصص القرآن للتسلية ويسمعون أنباء الحضارات المدبرة والأمم الهالكة وكأن الكلام لغيرهم!!

والغريب أنهم سكنوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهم يؤمّلون الخير! ووقع منهم ولا يزال يقع اعوجاج خلقي وسياسي يترفّع الآخرون عنه، ومع ذلك يحسبون أنفسهم عباد الله المخلصين...!!

*

بعض سنن الله الكونية من القرآن

وأريد قبل شرح العلل التي أومأت إليها أن أذكر طائفة من سنن الله الكونية في بقاء الأمم وهلاكها، فإن القوانين القرآنية في هذا المجال لها دقة القوانين العلمية، التي تسمح بجري السفن في البحار، ودوران الآلات في المصانع... :

(1) في سورة القصص شرح مستفيض لعواقب الحكم الفردي والاستبداد السياسي، وشرح آخر لعواقب الطغيان الاقتصادي، والاغترار بالمال العريض، أوجزه المولى تبارك اسمه في هذه الخلاصة: ﴿ **تلك الدَّارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأرْضِ وَلَا فَسَاداً. والعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[2] فهل أجدت هذه الخلاصة في محاربة الفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة؟ أم شاعت هذه وتلك في تاريخنا القريب والبعيد.

(2) في سورة يوسف، وفي أطواء فصول مثيرة من الغربة والسجن والإغراء والظلم، يبرز قانونان جليلان ﴿ **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِين** ﴾. والآخر ﴿ **لا تَأْيَئَسُوا مِنْ رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمِ الكَافِرُونَ** ﴾[3] الأول نهج خلقيّ صارم في جدوى الاستقامة، والثاني

---

(2) سورة القصص 83.

(3) سورة يوسف 90، 87

الاستناد إلى الله في ارتقاب مستقبل أفضل مهما أظلمت الآفاق في مرأى العين، فهل تتمّ تنشئة الشباب على هذه القواعد؟ أم أن التعلق بالقشور هو ديدننا؟.

(3) بدأت سورة محمد أو سورة القتال بهذه الآية ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾[4] ألا تلمح في هذا المطلع الحاسم أن الإلحاد مهما صحبه من علم مشئوم النهاية، وأن الكفار والفتانين مهما بلغ ذكاؤهم لا بد أن يحرموا بركات الله، ويواجهوا الفشل والدمار، وأن التعويل إنما يكون على الإيمان والإصلاح؟

(4) الرغبة والرهبة أحاسيس مجنونة تلمسها وراء الطمع الجامح والخوف المُذلّ فهل يعاني من ذلك إنسان أو شعب يفهم قوله تعالى ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾[5] إن اضطراب الأعصاب، ومستشفيات الأمراض النفسية، وحوادث الانتحار تملأ أقطار الغرب لنضوب هذه الروحانية وانطلاق الجماهير وراء الماديات لا تدري سواها، فكيف حصّنا أنفسنا من هذه الأوبئة...؟

تدبر هذه الخلاصات المعتصرة من تجارب التاريخ، ومن حصاد الأمم القائمة والذاهبة وسل نفسك: كم أفدنا نحن المسلمين من تقرير القرآن لها؟ تدبر هذه الحكم القرآنية التي تمثل قوانين كونية صارمة...

يقول تعالى في تقعيد واحد من هذه القوانين:

(5) ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** ﴾[6]

---

(4) سورة محمد 1.

(5) سورة فاطر 2.

(6) سورة يونس 81 ـ 82.

(6) وتأمل القانون الآخر في قوله تعالى : ﴿ فأمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلأَرْضِ ﴾[7].

(7) وتأمل هذا القانون أيضا : ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾[8].

(8) وهذا قانون آخر : ﴿ إنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ، وَإنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مَنْ بَعْدِهِ ﴾[9]

(9) وقانون آخر يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[10]

(10) وفي قانون آخر يقول القرآن : ﴿ ذَلِكَ بِأنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأنْفُسِهِمْ ﴾[11]

إن القوانين العشرة السابقة نموذج لما يكفل الحضارات، ويحصِّن الأمم. ودراستها حياة ونماء للعقائد والأخلاق ، ومهما كان الوزن لفروع الفقه فهذه الأصول أسبق، والعكوف عليها أجدى، ذلك أنها حقائق، والمقابل لها أباطيل، أو أنها معروف، والمقابل لها منكر. أما الاختلاف في كثير من الأحكام الفقهية فلا يعدو أن يكون وجهات نظر قد تكون متساوية الأجر عند من يصوِّبون كل اجتهاد، أو متفاوتة الأجر عند من يرون المجتهدين عرضة للخطأ والصواب! ! ...

يقول فقهاء: لا بد من قراءة فاتحة الكتاب وراء الإمام، ويقول فقهاء آخرون لا تجوز قراءتها! ! ليكن هذا أو ذاك، ،،،، وليختر من يشاء ما شاء، فما

(7) سورة الرعد 17.
(8) سورة المائدة 100.
(9) سورة آل عمران 160.
(10) سورة السجدة 24.
(11) سورة الأنفال 53.

يقوم الدين، أو ينهدم بأحد المذهبين، إنما يضيع الدين والدنيا معا، بذهاب الخشوع، واستحكام الأثرة، وإطاعة الهوى، والذهول عن سنن الله الثابتة في استخلاف الصالحين، وتأديب الجهلة، وإهالة التراب على ما يفعلون.

ويسرني أن أنقل هنا كلاما للشيخ العلامة محمد رشيد رضا يؤكد هذه الأقوال:

لم يقصِّر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة، كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم! والجمع بين النصوص التي وردت في ذلك، والحث على الاعتبار بها! ولو عُنُوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام، وقواعد الكلام، لأفادوا الأمة بما يحفظ دينها ودنياها. وهو ما لا يغني فيه التوسع في دقائق مسائل النجاسة، والطهارة، والسَّلَم، والإجارة، فإن العلم بسنن الله تعالى في عباده لا يعلوه إلا العلم بالله تعالى، وصفاته، وأفعاله، بل هو منه، أو من طُرُقه ووسائله.

وقد فطن لهذا الحكماء من العلماء، فقال أبو حامد الغزالي في بيان القدْر المحمود من العلوم المطلوبة ـ من كتاب العلم في الإحياء ـ:

«أما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء، فهو العلم بالله تعالى، وبصفاته، وأفعاله، وسننه في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا! إذ هذا العلم مطلوب لذاته.!! ثم فضّل أبو حامد الغزالي أهل هذا العلم على جميع العلماء من متكلمين، وفقهاء! وأيده في ذلك العز بن عبد السلام، إذ استفتي فيه، فأفتى بصحته! وبين الغزالي أن هذا العلم هو الذي امتاز به عظماء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وأنه الذي عناه عبد الله بن مسعود لما قال في موت عمر بن الخطاب: مات تسعة أعشار العلم...

ورواية أبي خيثمة: «إني لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم!!»

أقول: كان عمر رضي الله عنه أبصر الناس بطبائع الشعوب، وأسباب ازدهارها،

واندثارها، وكيف تبنى الدول، وتصان، وتنتصر، وتؤدي رسالتها.. وسياسته في المال والحكم أمارة وعي عميق بالإسلام وغاياته...

لقد بدأ المسلمون رسالتهم العالمية بداية حسنة، فكانوا ـ أمة ودولة ـ نموذجا حسنا لتعاليم الإسلام، واستفادوا استفادة صادقة من تاريخ الأمم الأولى. جاء الخليفة الأول وليد شورى حرّة، وبيعة نزيهة، وباشر منصبه، فقلّتْ نفقته، وهو حاكم يكدح للمسلمين، عن نفقته، وهو تاجر يكدح لنفسه! ثم شاء ألا يموت حتى يرد إلى بيت المال كل درهم أخذه منه أجراً على عمل، لتكون ولايته كصلاته، وصيامه، وحجه ابتغاء وجه الله، وترفعا عن ذرة من الدنيا...!!

وجاء الخليفة الثاني بعد استطلاع للرأي العام لم يكن منه بد، ولم يكن عنه عوض، فإن جيوش المسلمين مشتبكة مع الفرس والروم شرقا وغربا، فيستحيل أن يتم انتخاب... وسار عمر سيرة سابقهِ عدالةً، وعفةً. وإذا كان المهازيل في عصور كثيرة يسمنون بعد تولّي المناصب، فإن عمر خرج من منصبه عاريا من أعراض الدنيا كلها، وقتله علج حاقد في بيت الله، وهو يؤُم الركع السجود..

وإذا كانت الأقطار المفتوحة تشكو صلف الغزاة، فإن عمر أبى إلا أن تعرف الشعوب معنى الحكم الجديد، فما كاد يسمع أن ابن عمرو بن العاص والي مصر أهان أحد الأقباط، حتى استدعى القبطي المظلوم، وأعطاه السوط ليجلد ابن الوالي القرشيَّ المعتدي...! هل يغني تاريخ الفرس والروم، أو تاريخ الإنكليز والفرنسيين مثل هذا الدرس؟

وجاء الخليفة الثالث وليد شورى من كبار الصحابة، وكان رجلا ذا مال في الجاهلية والإسلام، عرك أذن خادم له من العبيد. فرأى أنه أوجعه، فأعطى أذنه هو للعبد قائلا: اقتص لنفسك، وخجل الخادم! وألحّ عثمان لأنه يخشى يوم الحساب!

إن فتنا عمياء أحاطت بهذا الخليفة ـ وهو من أنبل خلق الله ـ فطاحت به، وكان من ورائها ائتمار اليهود والمجوس وسذاجة العرب الذين يعرفون معارك النهار ولا يعرفون مؤمرات الظلام، ودسائس المهزومين من وثنيين وكتابيين..

وجاء الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب، وهو رجل أوتي الحكمة، والفروسية، وطلب الآخرة، وازدراء الدنيا، بل إن فضائل الإسلام التقت في إهابه وتمثلت في جهاده، وقد انتهت دولة الخلافة به، لأن مصابه فيمن حوله كان أشد من مصابه فيمن قاتله..!!

وتلاحظ على دولة الخلافة هذه الخصائص: أن الخليفة من أكفإ رجال الأمة وأقدرهم على قيادتها. وأن الشورى كانت مرعية. فلا افتيات. ولا استبداد. ولا استعلاء. وأن يد الخليفة في المال العام كانت مغلولة، فلا يستطيع توسعا، ولا استغلالا أبدا. وأن العمل بالإسلام وله في الداخل والخارج كان شغله الشاغل. ويمكن القول: إن الدولة في صدر الإسلام كانت الوجه الجميل للرسالة الإسلامية. وكانت صورة حسنة للأمة الإسلامية... ثم بدأ تحوُّل يجب عرضه بدقة. نشأ عن طبيعة العرب أنفسهم!

فالعرب تشيع فيهم العصبية القبلية، ولهم اعتداد منكر بالأنساب والأحساب، ونزعاتهم الفردية طاغية. وقد قمع الإسلام هذه الجاهليات في سيرتهم، بيد أن غرائز هذا الجنس القويّ لم تلبث أن اقتحمت سياج الكبت، وفرضت نفسها على شعبة الحكم في الإسلام! ثم فرضت نفسها على شعب أخرى اجتماعية واقتصادية ، وخلقية...

وهذا التسلل العربيّ المنحرف المغالب لتعاليم الدين. بدأ ـ لا أقول ـ على استحياء بل على استخفاء. وخبث. فإن الجماهير من العرب، وغير العرب كانت أمينة على دينها. حريصة على العيش في ظلاله، فكيف تستطيع العصبيات الشريرة التنفيس عن ذاتها في هذا الجوّ؟

على كل حال لقد بدأت التحرّك رافعة علم الدين ! ! وإني لأعجب : لماذا يرى عربي ولد في بطحاء مكة، أن لسلالته الحق في حكم شواطئ الهادي والهندي والأطلسي؟ ألإن أباه كان عمدة في الجزيرة العربية والشام والعراق؟ ولماذا يَحْمِل نظام الخلافة على عاتقه هذا العبء الثقيل؟ وماذا كسب الدين نفسه من هذه الذرية من الضعفاء أو الأقوياء (*)؟

لكن بني أمية، ثم بني العباس فعلوها. فاستصحبوا نسبهم «العريق» وهم يفرضون أنفسهم حكاما على الأمة، ويسوّغون وجودهم وحدهم في مناصب القيادة. بأنهم أقدر من غيرهم على خدمة الإسلام ونشر دعوته ! !

قد تقول : ما لنا ولهذا التاريخ القديم؟ ولماذا ننبش القبور؟

والجواب أن الأمر ليس أمر فردٍ مّا، أو جنس مّا، إنه أمر دين يجب إنصافه.. فإن «الحكم» هو أوّل ما انحلّ من عرى الإسلام، وأمست «الدولة ورجالها» في أغلب الأعصار والأمصار الوجه الدميم للإسلام، لأسباب ينكرها الدين نفسه.

ذلك أن الخليفة لم يكن أقدر الناس على القيادة، ولا من أقدرهم، أي أن الكفاءة استبعدت في الترشيح للمنصب! ثم وهنت أو ماتت أجهزة الشورى، وانفرد بالتصرف عقل واحد يزعم لنفسه الكثير! وانطلقت الأيدي في المال العام تغرف منه دون حسيب ولا رقيب، وذهبت قناطير منه للخدامين والمداحين. واضطرب العمل بالإسلام في الداخل والخارج على سواء، بل لم توجد أجهزة رسمية متخصصة للدعوة في أنحاء العالم، ففحش الجهل بالإسلام، وحسب الأجانب أن الإسلام دين قتال وحسب! ربما وهم البعض فظنّ أن هذه العلة العارضة أصابت الإسلام بشلل مبكر!

(*) عندما يكون الخليفة أهلا للخلافة مستوفيا لشروطها مؤديا لحقها.. لا يهمنا أن يكون من أي بلد أو قبيلة لكن عندما يكون غير مؤهل.. ثم يفرض لمجرد أنه من بلد معين أو قبيلة معينة.. هنا يكون اعتراض الإسلام.

وهذا جهل غليظ، فإن الإسلام ليس حزبا سياسيا قصاراه طلب السلطة! إنه دين يهيمن على النفوس والأفكار، ويسوس الناس أولا بالعقائد والعبادات والتقاليد التي يضعها، والأخلاق التي يربي عليها، والتعاليم التي ينشرها، والشعائر التي يرفعها.

والسلطة التنفيذية جزء من مناهجه، وهو لم يفقدها منذ بدأ مسيرته، وإنما استولى عليها من ليس لها بأهل! وبقي عدد هائل من العلماء والمربين والدعاة والموجهين والعمال الأتقياء، والولاة المحتسبين يعملون للإسلام بصدق وحماس، ويوسعون دائرته لتنداح شرقا وغربا. فكان انحلال عروة الحكم آفة تحملها الكيان القويّ كما يتحمل الإنسان السويّ صداعا اعتراه. أو كما يتحمل الشاب الجلد دوارا ينتقص قواه...

وإنما ظهرت المأساة مع مرّ الزمان، وترادف البلاء و ... شيخوخة الدولة. وضعف أجهزة المناعة، وقدرة الجراثيم الكامنة على الفتك دون وجل...

إن المَرَضَ العابر سهل الدواء، وقد يزول ويُنسى، وتذهب آثاره! لكن غلبة النزعات البدوية، والعصبيات العائلية على نظام الخلافة خلّف شرورا شرحناها في أماكن أخرى، لعل من بينها رخص الكفاءة العلمية والخلقية والإدارية في أسواق التعامل، واعتقاد الكثيرين أن التقدم والتأخر حظوظ عمياء أو أنها من قبيل المنايا التي قال فيها زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطئْ يُعَمَّر فيهرم!!

وهذا الاعتقاد وحده قاتلٌ للأمم، فكيف لا ينال من رسالة عالمية كالإسلام؟ والأغرب أن ترادف الفساد نضح على الميدان العلمي نفسه، فرأيت

«علماء دين» يَسْتَخِفُّون بالشورى، ولا يسمحون لها أن تعترض الحاكم إذا ارتأى رأيا... ويتحدثون في جراءة أن الشورى غير ملزمة للحاكم الفرد! وهم معذورون في هذا الخبط! فإن أحد المفسرين شرح قوله تعالى ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**[12] فقال: ثم امض على الأرشد لا على الشورى!! أي أن ما اتجه اليه هو الأرشد! وما ارتأته الجماعة هو الأفسد!! وتذكرت وأنا أقرأ هذا اللغو قول فرعون لقومه ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَى وَمَا أَهْدِيكُم إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**[13].... وكان فرعون يرى قتل موسى! لماذا؟ يقول: ﴿ **أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وأن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ**[14] فرعون يخاف من فساد موسى!! هذا هو الرشاد الذي يجب أن يطاع...

ومألوف في سيرة الحكم الفرديّ الإغداق على المؤيدين والأتباع والشحّ أو الحرمان للمخالفين والمعارضين. والرأي النزيه لا يتماسك في هذا الجو النكد. ولذلك كان الحق مرا! وربما كلف الحياة نفسها، أما الملق فباب واسع إلى الثراء والرفاهة. وهل ضاع دين الله ودنيا الناس إلا بهذا المنطق الوضيع؟..

ذهب رباط المبادئ وبقي رباط المآرب والمنافع! ذهب الحبّ والبغض في الله وبقي الحب والبغض لدنيا تنال، أو لشخص يلتمس في جواره الجاه والمال...

وذكرت قصة جرير مع عبد الملك بن مروان[15]، وهو خليفة خطير المكانة، أو هو المؤسس الثاني لدولة بني أمية، جاءه جرير الشاعر ينشده قصيدته المشهورة التي مطلعها:

---

(12) سورة آل عمران 159.

(13) سورة غافر 29

(14) سورة غافر 26.

(15) الخليفة عبد الملك خليفة عظيم ورع مجاهد، وهو من فاتحي إفريقية والمغرب، لكن هذا لا يعني أنه بلا أخطاء.

أتصحو أم فؤادك غير صاح ...؟

فقال عبد الملك: بل فؤادك أنت! إن مطلع القصيدة لم يسرَّه..! ولكن الشاعر مضى حتى بلغ هذا البيت:

ألستم خير من ركب المطايا؟   وأندى العالمين بطون راح!

فطرب عبد الملك طربا شديدا، وقال: بلى نحن كذلك.. خير من ركب المطايا، وأسخى الناس أيادي... وانفتح بيت المال ليأخذ جرير منه ما يشتهي! وعطايا الخلفاء للمداحين لا نهاية لها، ألهذا أنشئ بيت المال؟

قال لي صديق: ذهب وفد من مصر إلى واشنطن عقب اتفاق «كامب ديفد» وكان يضمّ أكثر من مائة شخص، وأقيم لهم حفل طعام في البيت الأبيض، فكتب صحافيّ أمريكي يستنكر إقامة حفل لهذا العدد الكبير، وقال: إن دافع الضرائب في الولايات المتحدة لم يقدم ماله لمثل هذه الأغراض! وأسرع البيت الأبيض يعلن أن نفقات الحفل قامت بها إحدى الشركات، ولم تتحملها الدولة...!!

إن المال العام ليس كَلَأً مباحا، يتخوّض فيه الحاكمون بغير حق، وصون هذا المال جزء من النزاهة التي تحترم بها الدولة.. وسيرة الخلفاء الراشدين بالغة الدقة في احترام المال العام، ولأمر ما رفض علماء الإسلام إضفاء صفة الرشد إلا على دولتهم وحدها، ثم ضموا إليها خامسا هو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

إن علماءنا قديما لم يخونوا دينهم، والأئمة الأربعة ومَنْ داناهم في مكانتهم، وجمهور المربين والدعاة، التزموا هذا النهج، ثم جاء علماء سوء رأوا الجبن أنجى فآثروا الصمت! ثم جاء خَلْف آخر يرى إرضاء المستبدين من الدين...!

الخلافة الراشدة أبوّة مُحبّةٌ، ورياسة حانية! ورباط بالأتباع والأعوان على إنجاح رسالة، وحماية دعوة! أما الخلافة غير الراشدة فالمحور الأول لنشاطها هو امتلاك السلطة وإدامتها! وتجيء الأهداف الأخرى تابعة...

وتأمل في معاملة القادة الكبار بين هذين المثالين: لما قُتل النعمان بن مقرن في معركة نهاوند بعد ما أجهز على المجوسية والكسروية، جاء البريد إلى المدينة يحمل نبأ استشهاده، وكان عمر في إحدى مراحل الطريق يتشوَّفُ للأنباء، فلما سمع الخبر شهق بالبكاء حتى أن عامل البريد فزع لحزنه. وقال لأمير المؤمنين مسلّيًا: ليس هناك غيره من القادة أصيب! فقال عمر: هناك فقراء المهاجرين الذين لا يضيرهم أن يسمع بأسمائهم عمر!!

ذاك على عهد الخلافة الراشدة! أما في عهد آخر فإن قادة الفتوح العظام في المشرق والمغرب لقوا معاملة منكرة! قُتل محمد بن القاسم فاتح السند. وأهين وعزل موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس، لأسباب لا تشرف نظام الحكم.. ولو أن الخلافة الراشدة باقية، لكان للقادة العظام شأن آخر، بل لمضى الفتح في طريقه يؤدّب الأوربيين، ويتيامن حيث وصل إلى جنوب فرنسا، وجبال سويسرا ليشقّ طريقه نحو النمسا والبلقان والقسطنطينية في شرق أوربا، وبذلك يعود الى الشام متمما الرحلة التي بدأت من مصر....

إن الخلفاء الأكاسرة لا يكترثون بذلك! لقد هاجت القومية العربية بغتة في دمائهم، وعادت إليهم حمية الأنساب، وتقاليد البسوس وداحس والغبراء، ورجحوا وساوس هذه العروبة الرعناء على وصايا الدين الذي ما كانوا قبله شيئا مذكورا، وهزموه آخرا بعد ما نصروه أولا...

وإن تعجب فاعجب لبعض العلماء الذين يريدون أن يسوسوا العالم اليوم لا بمواريث الخلافة الراشدة! بل بتقاليد البدو، ومزاج القبائل في الصحراء، محرفين الكلم عن مواضعه، وذاهلين عن فطرة الله في الأنفس وآياته في الآفاق..

تسلل آخر في الميدان الاجتماعي

إذا كانت الخلافة الراشدة قد تلاشت أمام تقاليد العرب القديمة، وأمسى للشورى مفهوم مائع غامض لا وزن له، فإن هناك هزيمة أخرى لتعاليم الإسلام في الميدان الاجتماعي ينبغي أن نلقي الأضواء عليها.

من بدء الخليقة والنوع البشري يحيا ويبقى بالزوجين الذكر والأنثى، ولكلا الجنسين خصائصه التي فطره الله عليها، ويمكن القول بأن الذكورة أخشن وأقوى من الأنوثة، وأن الأنوثة أصبر وألين من الذكورة، ولكن كليهما يكمل الآخر، فهذه من تلك، وأواصر النسب إلى آدم واحدة أو هي كما عبّر القرآن الكريم ﴿ **لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** (*)﴾.

ولكن ازدراء الأنوثة، واستضعافها، وإنكار حقوقها الطبيعية خلائق مألوفة من زمن بعيد، وبعض المجامع الأوربية كان يتساءل: هل المرأة من الجنس البشري العادي كالرجل؟ وهل لها روح مــــثل روحه؟ والقوانين الأوربية على مرّ التاريخ كانت تكرم الرجل وتنتقص المرأة...

(*) سورة آل عمران 195.

وهناك نماذج وحشية لإنكار حق الحياة على المرأة، ففي بعض أرجاء الهند كان الزوج إذا مات وجب أن تموت المرأة معه مهما كانت صحيحة البدن! وليس أغبى من الهنود ـ في هذا الحكم ـ إلا عرب الجاهلية الذين يتشاءمون لمولد الأنثى، وقد يئدونها فتلفظ أنفاسها الواهنة تحت التراب!

إن الأب السامي القدر يخاف إذا عاشت البنت أن تجرّ عليه العار، وما العار عند هذا المخلوق؟

يقول عربي ضائق بالأنثى: والله ما هي بنعم الولد! نصرها بكاء، وبرها سرقة!! يعني أنها لا تحسن القتال فتنصر عشيرتها، ولا تقدر على الكسب فتبرّ أهلها من مالها، وإنما تأخذ من مال زوجها لتعطي أهلها إن كانوا فقراء ونسأل: من وراء تجهيلها في فنون الحرب؟

إنه أبوها الكاره لها! ومن وراء تجهيلها في كسب الرزق؟ الجواب نفسه...

إن اليهوديات في فلسطين المحتلة يزرعن الأرض، ويحملن السلاح، ويقاتلن رجالنا بشراسة..

وقد جاء الإسلام فاحترم الأنوثة، واستبعد كل النظرات السيئة إليها، ورفض أنواع الإهانات التي كانت تلقاها، وعدّها جزءا من حقيقة الإنسانية التي جاء لتزكيتها...

ووعى المجتمع العربي على عهد السلف الأولين المرأة تتردد على المسجد من الفجر إلى العشاء، وتتعلم الدين كما يتعلم الرجل، وقد تقاتل مع المقاتلين! وقد تداوي الجرحى، وتدفن الموتى، وتأمر وتنهى وتنصح... الخ.

إلا أن التقاليد العربية الجاهلية التي كانت تجتاح الأنوثة قديما، وتجاوز حقوقها المادية والأدبية، عزّ عليها أن يطفر الإسلام بالمرأة هذه الطفرة، فعادت تسلب ما منح الدين، وتنكر ما أقرّ، وتعامل المرأة على أساس أنها متعة وحسب!

ومن ثمّ صدر تحريم ـ من جهات غير معروفة ـ بألاّ تصلي امرأة في مسجد! [16] وظل هذا الحظر قرابة اثني عشر قرنا، ولا يزال إلى الآن يقاوم نصائح المصلحين.

وصدر تحريم مثل الأول بألا تنتسب إلى مدرسة، ولو لمحو الأمية(!) بله التعليم المتوسط والعالي... ولولا ضغط شديد من أولي النهي ما أمكن تعليم النساء في عصرنا، ولبقين لا يعقلن شيئا من أنواع العلوم...

وصدرت فتاوى مكذوبة بأن وجه المرأة عورة «ولو من غير فتنة» وصوتها عورة وأخذت الفتوى حكم الأمر اللازم وليس الرأي الاحتمالي، وقيل إن المرأة إجمالا لا علاقة لها بالنشاط الثقافي والاجتماعي، أما سائر الأنشطة المدنية والعسكرية فالوجود النسائي فيها منكر غليظ جملة وتفصيلا...

والحق أن الشريعة الإسلامية في شئون النساء تخرج من بين فرث ودم، فالجاهلية العربية التي فرضت نفسها مئات السنين مرفوضة، والجاهلية الأوربية الوافدة مرفوضة هي الأخرى، وبعض المتحدثين في الإسلام يبغي العودة بالمرأة الى التقاليد البدوية، أو الأوضاع الجاهلية المزدرية للأنوثة... كما أن بعضا آخر يريد تقليد أوربا في كل شيء، وأحكام الإسلام أشرف من أن يثرثر بها هؤلاء وأولئك...

قدم إليَّ شاب متدين كتيِّبا ألَّفهُ عالم يدعو للنقاب، يحكم بالفسق على السوافر من النساء، ومددت بصري إلى السطور الأولى فوجدت الرجل يقول: إن الإسلام حرم الزنا فوجب ستر الوجه سدّاً للذريعة! قلت: استدلال ساقط، فقد طلب الإسلام كشف الوجه في الحج والصلوات، فهل كان بذلك يُحَرِّضُ على الفاحشة؟ وروت كتب السنة الصحاح نحو عشرة أحاديث تفيد أن الرسول

---

(16) من الغريب أنهم في هذه القضية يفضلون كلام بعض الصحابة الذي لا يعدو أن يكون إستياءً من بعض المخالفات ـ على كلام الرسول الواضح الحاسم في أنه لا يجوز منع اماء الله مساجد الله (!!!).

عليه الصلاة والسلام رأى الوجوه مكشوفة فما أنكر ذلك، فهل كان يقرّ المنكر؟ واستثنى القرآن الكريم الزينة الظاهرة مما ينبغي ستره، فأين تكون هذه الزينة يا ترى؟

الحق أن نصوصا صحيحة أهملت عمدا، أو حرّف معناها، وقدّمت عليها أحاديث موضوعة تحضّ على جعل النساء أميات، أو أخبار واهية تفيد أن المرأة لا ترى أحداً، ولا يراها أحد، وهي آثار منكرة تخالف مخالفة جليّة ما ثبت عن السلف الأولين بطريق التواتر، أو الصحة، وقد أخذ المسلمون في تجهيل النساء، وإهمالهن حتى أصبحن في العصور الأخيرة من سقط المتاع، وأصبحت الأنوثة رمز الهوان، وتفاهة الشان...

كنت يوما أطالع إحدى الصحف، وكان في صدرها صورة لرئيسة وزراء انجلترا «تاتشر» فقال لي شاب يرقبني: أترى هذه الصورة؟ قلت: نعم! فاستتلى: أيعجبك هذا؟ قلت: قومها يصفونها بأنها امرأة حديدية! وقد أعجبني موقفها في مجلس العموم وهي تطالب بإعادة عقوبة الإعدام إلى القانون الإنكليزي. صحيح أن المجلس خذلها، بيد أني أراها أذكى وأبصر للحق من مائتي عضو عارضوها. وانتصروا عليها...

إن مسئوليتها عن الأمن أقنعتها بضرورة القصاص. وهي أرشد وأعدل من الرجال الذين قاوموها!

وأراد الشاب مقاطعتي فقلت له: وشيء آخر سرني منها عندما حاربت انجلترا الأرجنتين ـ وكانت هذه المرأة تقود قومها ـ رئيت ترتدي السواد باستمرار، كانت ترى كل جندي يقتل من أبناء وطنها أخا، أو ابنا فهي تلبس عليه الحداد، وترفض كل شارة للسرور والبهجة!!

إنها في نظري أفضل من حكام في الشرق لهم شوارب ولحى!

قال الشاب: ألا ترى رأسها العاري؟ قلت: هذا أدب إسلاميٌّ ينقصها، والإسلام يرى أن الرأس عورة يضرب عليها الخمار، وسواء كانت العورة مغلظة كما يقول الأئمة أو مخففة كما يقول المالكيون، فالشعر ينبغي ستره احتراما لتعاليم الدين. وكل ما أضمه إلى هذا الحكم أن داخل الرأس أهم من خارجه أعني أن الذكاء أو الغباء والعلم أو الجهل قضايا أخطر من غيرها، ولا تغضّ من الأدب المطلوب.

لا نريد النمط ولا التقاليد الجاهلية

وربما سارع البعض إلى اتهامي بالميل إلى الحياة الغربية، وقبول وضع المرأة فيها!

وجوابي أني أنكر هذه الحياة، بقدر ما أنكر المواريث التي الت إلينا ترخص الأنوثة، وتجمّد إنسانيتها، وتستكثر عليها حقوقا منحها الله إياها..

إن لأوامر الله مكانتها العالية، وإني لأرفض إعطاء هذه المكانة تقاليد قَبَلِيَّة ما أنزل الله بها من سلطان.

إن المسلمين في الأعصار الأخيرة فتكت بهم أمية طامسة، وكانت بالنساء أفتك! وغابت عنهم هدايات الله في تفتيق الألباب، وتنمية الفضائل، وكانت عن النساء أبعد! واختفت حقيقة الإنسان وراء تزاويق ومراسم مفتعلة، وكان نصيب النساء بعد هذا الاختفاء أن أمسين أجسادا تُلفّ بالثياب، وتربى وراء الأبواب، فلا علم ولا عمل، ولا رأي ولا نصح، ولا عبادة ولا جهاد.

إن الجاهلية القديمة سمحت لنسوة تقيات أن يشاركن في بيعة العقبة، ما وضعت على أيديهن قيدا! أما المسلمون في القرون الأخيرة فيستحيل أن تسمح تقاليدهم بذلك!

حدث في حروب الردة أن أسر خالد بن الوليد مُجّاعة بن مرارة سيد أهل اليمامة، فأوثقه ورمى به عند امرأته أم تميم في فسطاطها وحفظت المرأة أسيرها. فلم ير الأسير منها إلا الشرف والصدق!

وجال المرتدُّون جولة هزموا فيها المسلمين، واقتحموا فسطاط خالد. وحمل رجلٌ منهم بالسيف على أم تميم، فألقى الأسير رداءه عليها وقال: أنا لها جار، فنعمت الحرَّة والله ما علمت! دعوها وعليكم بالرجال!

ثم عادت الكرة للمسلمين، واستعادوا الفسطاط، وأخذوا يقتلون مُحتلِّيه، ووضعوا أيديهم على الأسير ليقتلوه! فقالت أم تميم: أنا له جارة... فتركوه!

كانت للمرأة شخصية، ومكانة فلم يحاول أحد مراجعتها أو تخطئتها. ونحن نعرف حديث: «قد أجرْنا من أجرت يا أم هانئ»! أما الأعصار الإسلامية الأخيرة، فبين المرأة وهذه الأخبار بعد المشرقين..!

أحيانا تملكني الحيرة وأنا أوازن بين الجاهلية العربية. والجاهلية الأوربية القديمة أيام الصقالبة والإغريق... التماثيل اليونانية والرومانية تنحت مكشوفة السوأة للرجال والنساء عموما على عكس الأدب والحياء الظاهرين في تماثيل قدماء المصريين! آلهة الإغريق منحلة وشاذة. ومجالس الفلاسفة قد يقع فيها الخنا، وقد يرى بعضهم إشاعة النساء..!! أما العرب الأقدمون فأساس خلائقهم التحفظ، وإن وجدت أندية فاجرة في قرى المؤتفكة. وسمع إفحاش سخيف في شعر امرئ القيس مثلا..

لندع البحث التاريخي في طبائع الأمم، ولا داعي للربط بين الأمس البعيد واليوم الحاضر ولنذكر ما نقبله وما نأباه في العلاقات بين الجنسين على ضوء من الدين وحده، ودون اكتراث لطبائع الشعوب، أو مزاجها في التحليل والتحريم. إنني أشعر بمدى تسفُّل الغرب عندما تطيح تقاليده بعفة فتيات لم يتجاوزن بضعة

عشر عاما من أعمارهن. وأشعر بمدى قسوة الشرق عندما تبقى نسوة أبكارا في بيوتهن وقد بلغن الستين والسبعين...

أي دين يقبل هذه التقاليد أو تلك؟؟

التسوُّل الجنسيُّ في الغرب محا قواعد الحلال والحرام، فاستُبيحت الأعراض طواعية وكرها وتقاليد الكبت عندنا عسَّرت الزواج بعلل مفتعلة، وبدأت تجرف الشباب إلى الفاحشة.

وناس من المتحدثين باسم الإسلام يحرسون هذه التقاليد، ويزدادون بها تشبثا كلما رأوا مباذل الغرب وفتونه، ناسين أنهم يجرُّون المسلمين إلى بلاء مبين...

وأبادر إلى القول بأني ألتزم التزاما تاما بتعاليم ديننا الحنيف، ويستحيل أن أتجاوز نصا قاطعا. أما النصوص المحتملة، والاجتهادات الأخرى، فقد اقتنعت بأمرين: أولها أن تراثنا الفقهي بحر لجِّيٌّ، وأن فقهاءنا فعلوا الكثير الجدير بالاحترام في خدمته ونفع الناس به، ولكن الزعم بأن الصواب حكر على مذهب بعينه، وأن الخطأ حكر على آخر زعم بعيد عن الحق. والثاني: أن من حقنا الموازنة بين الأقوال المروية واختيار ما نراه أرجح دليلا، وأجدى على الناس وأصلح لتبليغ الدعوة.

ونتيجة لهذا الموقف فقد رفضت المذهب القائل بأن الأعجميَّ ليس كفئا للعربية، ورأيته لونا من التفرقة العنصرية، والمغالاة في الاعتداد بالأنساب ولم أحترم إلا الدين والتقوى والكفاءة الشخصية.. كما رفضت كل إلغاء لإرادة المرأة في الزواج، ولم أعترض مباشرتها للعقد إذا اقتضى وضعها ذلك! ورفضت الطلاق البدعيَّ وأهدرت آثاره كلّها!! وأنكرت القول بأن وجه المرأة وصوتها عورة[17] كما يرجف الجاهلون وحاربت منعها من التعليم كما حاربت بقسوة

(17) إلا إذا تيقنت الفتنة.

إغلاق المساجد في وجهها، ولا يزال جمهور من أدعياء التدين يفعل ذلك..

وقبلت شهادة المرأة في جميع القضايا المدنية والجنائية في حدود النصاب المشروع، ولم أفهم وجها لمنعها من الشهادة في الحدود والقصاص..!! وأيدت في ذلك الفقه الظاهري!!

وللمرأة ذات الكفاية العلمية والإدارية والسياسية أن تلي أي منصب ما عدا منصب الخلافة العظمى. وتستشار وتشير، ولرأيها وزنه بقدر ما فيه من حق.

ولا يسوغ لا عقلا ولا نقلا أن يخلو رجل بامرأة، والاختلاط على الصفة المألوفة في أوربا مرفوض، ولكن اختلاطا على النحو الذي كان في المسجد على عهد السلف لا مانع منه: ويجب أن تحكمه آداب الإسلام في الاحتشام وغض البصر واتقاء الريبة وانصراف كل امرئ إلى واجباته...

وينبغي تعليم النساء قتال الشوارع والبيوت من شقة إلى شقة فإن أعداء الإسلام يحتلون أقطارا كبيرة منه ويهددون أقطارا أخرى، والجهاد ـ والحالة هذه ـ فرض عين على كل رجل وامرأة.

عندما كنت أزور الجزائر سمعت باسم السيدة فاطمة السنومرية التي قادت جيشا من أشجع الشباب، وهزمت عددا من الجنرالات الفرنسيين في معارك ضارية!! واستغربت لأن اسمها وإن ذكر باحترام كبير يُطوى على عجل....

قلت: إن الفرنسيين يعدُّون «جان دارك» قديسة. ويسلكون اسمها بين أكابر القادة! ولا يستحون من إبداء الاحترام العميق لذكراها. بينما يعدها الإنكليز الذين حاكموها وأعدموها ساحرة مشعوذة...

قلت لمن يحدثني من الجزائريين: خلِّدوا سيرة بطلتكم هذه. ودرسوها للبنات في المدارس والمعاهد. فالذكرى تنفع المؤمنين!... لماذا هذا الغمط؟؟

من المحزن أن ينتقل ازدراء الأنوثة من تقاليد الأعراب والصعاليك في جاهليتهم الأولى إلى المجتمع الإسلامي، ويظهر هذا الازدراء في أفكار وأحكام وأخلاق تشيع بين الناس وكأنها تعاليم دين! بل لقد حرِّف كلم عن موضعه وأوِّلت نصوص، وضعِّف صحيح وصحِّح ضعيف، لا لشيء إلا لغمط الأنوثة!

وأكاد أجزم بأن سوء التربية في قرون مضت إلى يوم الناس هذا يرجع إلى جهالة النساء وعجزهن إلا عن الوظائف الحيوانية! كما أن تطلُّع قائدات النهضة النسوية إلى الغرب، يُعجَبْن به ويقتبسن منه، يرجع إلى العرْض المكذوب لتعاليم الإسلام، أو بتعبير أدقّ إلى عرض عادات وأحكام جاهلية على أنها كتاب الله وسنة رسوله...

إن جمهرة من علماء الدين وضعت صعوبات رهيبة أمام تعليم المرأة في شتى المراحل، ولم تستسلم إلا كارهة! وهي الآن تضع ذات الصعوبات أمام تردد المرأة على المسجد! أما بقية المقررات الإسلامية التي ذكرناها آنفا فهم يقاومونها كما يقاومون الكفر(!).

من عشرين سنة كان القضاء الشرعي في مصر يأمر الشرطة باقتياد المرأة الى «بيت الطاعة» ما دام الرجل قادرا على نفقتها، ضاربا عرض الحائط بكراهية المرأة للزوجية، ومطالبتها بإنهاء هذه العشرة!! وكان أهل الزوجة يهرِّبونها من بيت إلى بيت ويحتالون على إبطال هذا الحكم. ولغطت الصحافة بهذا التشريع المهدر لحقوق الإنسان ونالت من كَرامة الدين نفسه، ثم جاء أحد وزراء العدل فأصدر أمرا بعدم تنفيذ هذه الأحكام، وبذلك أنقذ المرأة من قسوة الشريعة عليها..!

وكتبت يومئذ مقالا نشرته «الأهرام» بحروف كبيرة شرحت فيه حكم «الخلع» وثبوته بالكتاب والسنة، وقلت: إذا كرهت المرأة البقاء مع زوجها رفعت أمرها للقضاء، وردّت ما أخذت من مهر، وحكم القاضي بفسخ العقد

القائم أو إيقاع طلقة تنهي النزاع. ولا معنى لاعتقالها وجرِّها إلى أحضان رجل تبغضه بقوة الشرطة، أو الجيش!!

وحبَّذتُ ما فعله وزير العدل. وقلت: إنه طبق الشريعة ولم يخرج عليها كما يزعمون... إن الذي كان يحدث هو بعض التقاليد البدوية المتسللة إلى فقهنا في غيبة الوعي الصحيح. وقد شعرت بحرج بالغ عندما صدرت من أحد العلماء[18] فتوى بأنه ـ يحرم على المرأة أن تقود سيارتها! اذ قال لي صحافيٌّ أريب: إن الحضارة أمكنت المرأة من غزو الفضاء. ولا يزال الدين يحرِّم عليها أن تقود سيارة على ظهر الأرض؟ أليس من حق الناس أن يسوء ظنهم بالدين ويقصوه عن شئون الحياة؟ قلت: ما حرَّم الإسلام على المرأة أن تقود حمارة ولا أن تقود سيارة! وأحسب أن ظروفا محلية أوحت بهذا الحكم! وعلى أية حال فهو كلام إنسان. وليس قول الله ورسوله... إن الإسلام يقول ﴿ **لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِنْكُم من ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** ﴾[19]، ولكن التقاليد عند بعض زاحمت الإسلام على تعاليمه. ونالت منها، ونحن نتبع الإسلام وحده. ونرفض سائر التقاليد الأخرى عربية كانت أو غربية..

ضرورة غربلة المنقول من التراث والحضارة الحديثة

نقول: يجب أن تغربل التقاليد الشائعة بيننا غربلة شديدة حتى لا يبقى منها إلا ما كانت له بالشريعة صلة، وعلى قدر قوة هذه الصلة وضعفها يكون استمساكنا بهذه التقاليد أو إهمالنا لها..! إن نجاح التصنيع في عالمنا العربي لا يتم

---

(18) هذا العالم قاس الأمور على أمور اجتماعية واقتصادية عنده، وقد يكون له الحق في تحفظه، لكن ما كنا نريده منه، ونحن نثق في إخلاصه وورعه أن لا يعمم، بل يترك الأمور مفتوحة لأن الأصل الإباحة، والتقييد قد يجوز لعارض طارئ ابتثنائي.

(19) سورة آل عمران 195.

إلا بعد الإجهاز على التقاليد التي تزدري الاحتراف وتؤخر أصحابه! ربما كره البدوي أن يخرج من تحت آلة وهو مُعفَّر الجبين أو مُزَفَّتُ الكفّ، وربما ظن الشرف في عمل أنضر! إن هذا الفكر لا وزن له، ولا صلة له بالدين، وكل ما انبنى عليه من أحكام فقهية أو آثار اجتماعية فهو باطل، وخير لنا أن نتوب منه توبة نصوحا..

والتقاليد التي تزدري الأنوثة، وتميل إلى اتهام المرأة وتجهيلها ومنع ترددها على المسجد واستبعادها من ميدان الأمر والنهي والغضّ من كفاءتها إن أحسنت، ومضاعفة العقوبة عليها إن هفت، تلك كلها عادات من رواسب الجاهلية الأولى، والأخذ بها مضاد لتعاليم الإسلام قال تعالى ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ. أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ. إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[20] والإسلام ليس غرائز جنس مّا، ولا عادات بلدٍ مّا، إنه تعاليم نزلت من السماء ولم تنبت من الأرض.

وقد لاحظت سلطان البيئة في بعض الأحكام الفرعية، ـ يختلف بين قطر وقطر، قرأت ثلاثة شروح لـ «متن خليل» الذي يسود المغرب العربي تقرر هذا الحكم «وانتقاب المرأة أي تغطية وجهها إلى عينيها في صلاة أو خارجها ـ والرَّجل أولى ــ ما لم يكن عادة قوم فلا يكره في غير الصلاة ـ ويكره فيها مطلقا لأنه من الغلو في الدين » وكراهية النقاب هنا غير طلبه في بيئات أخرى...! وأرى أن نتفرس بقوة في المواريث التي آلت إلينا، وعزائم الدين ليست موضع ريبة، وإنما تتفاوت الأنظار في القضايا الثانوية، ومن حقنا أن ننتقي من أقوال مجتهدينا ما يدعم أمتنا في هذا العصر، وما يجنبنا مزالق وقع فيها غيرنا، وما يبعد عن الإسلام

(20) سورة التوبة 71.

تهيا هو منها براء، إن تجارب عديدة يجب أن نعيها من مسيرتنا التاريخية الطويلة خلال أربعة عشر قرنا. والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين...

والحق أن الإسلام تحمَّل العنت من الساسة الذين حكموا باسمه ونسوا هداه! ومن المجتمعات التي انتمت إليه ثم قدمت مواريثها وأهواءها على مطالبه ووصاياه

وقد ترنحت الدعوة الإسلامية وهي تشق طريقها إلى أقطار العالم في العصور المتأخرة ـ والوسيطة ـ لأنها حملت مع تعاليم الإسلام أخلاطا أخرى غريبة على وحي الله!

بل إن المسلمين داخل أرضهم ذاتها عانَوْا من إغفال الشورى وتحكّم الفرد، ومن فقدان المال لوظيفته الاجتماعية، وعانوا من تحقير النساء وحبسهن دون علم ولا عبادة ولا تناصح، ثم نشأ عن ذلك هبوط إنسانيٌّ عام أزرى بهم، وأسقط على مرّ الأيام مكانتهم ورسالتهم وقذف بهم في مؤخرة القافلة البشرية بعد أن فقدوا الصدارة عن جدارة لا عن ظلم...

فلما بدءوا يصحون ويتحركون أخذت عقابيل الماضي تعترضهم..

ومن عجب أن تهفو الجماهير إلى الشورى، فإذا متعالم تافه يفرغ الشورى من فحواها ليخدم الاستبداد السياسي..

وإذا مُدَّعٍ للغيرة يقول: المرأة لا ترى أحدا ولا يراها أحد!

كأن عصر النبوة كان يقبل المنكر عندما رصّ النساء صفوفا في المسجد، وعندما قبلهن عونا للجيش في بعض المعارك...

إن الإسلام يراد هدمه باسم الإسلام!

والقائم بهذه المهمة شيوخ أو شباب لا هم من أهل الذكر ولا هم من أهل الفكر...

وفي عماء من مخلّفات المعاصي السياسية والاجتماعية، وتحت ضغط الهزائم، التي نكست أعلام الإسلام في أكثر من ميدان، ومع صحوة من مراجعة النفس ومحاسبة الضمير، ومقارنة الأمة العليلة بالأمم الغالبة، شرع المصلحون يتكلمون ويتساءلون: ما النظام الإسلامي المنقذ وسط هذا الطوفان.؟!!

يقول محرر مجلة الفكر الإسلامي السودانية: «إن القضايا المعاصرة التي تحتاج إلى نظر عميق واجتهاد جديد كثيرة ومتشعبة! إلا أننا يمكن أن نشير إلى أهم هذه القضايا إذ لا يمكن بناء دولة حديثة دون البتّ فيها بصورة أو بأخرى...

من هذه القضايا قضية التغيّر الاجتماعي - أو الانقلاب الإسلامي كما يسميه أبو الأعلى المودودي - كيف يتحقق في ظل الدول العلمانية القائمة اليوم في بلاد المسلمين؟ هل يتم عن طريق الثورة الشعبية أو الانقلابات العسكرية؟ أم الإصلاحات القانونية من داخل النظام القائم؟ وهل بعض هذه الطرق يجوز في أقطار معينة ولا يجوز في أخرى؟ وما هي النظرة إلى هؤلاء الحكام العلمانيين ومعاونيهم ومن رضي بحكمهم من عامة المسلمين؟

ومن هذه القضايا مشكلة نظام الحكم والإدارة في ظل دولة إسلامية. هل تسمح هذه الدولة بالأحزاب والتجمعات السياسية؟ وهل يمكن أن ينفرد حزب إسلامي واحد بالسلطة أم تمنع جميع الأحزاب؟ كيف يكون شكل النقابات والاتحادات المهنّية؟ وما دورها في ظل نظام إسلامي؟ كيف تمارس الشورى، وكيف تنظم أجهزتها؟ ومن هم أهل الحلّ والعقد في الدولة الحديثة؟ كيف يتم اختيار الحاكم وكيف يعزل؟ وما هو وضع الأقليات غير المسلمة؟ وهل يجوز إشراكها في الأجهزة التشريعية والتنفيذية في الدولة؟ وهل يجوز إشراك المرأة في هذه الأجهزة كذلك؟ ما هي علاقات الدولة الخارجية بالدول القائمة في العالم الإسلامي، والدول المجاورة، والدول الكبرى؟ إلى أي حدّ تناصر الدول الإسلامية المسلمين والمستضعفين في بلاد أخرى؟».

إننا تحدثنا في هذه القضايا، وتحدث فيها المعنيّون بحاضر الإسلام ومستقبله، وكان الحديث مشوبا بالمرارة، يستكشف الحقائق بحذر حينا وبجراءة حينا آخر...

والسبب أن الاستسلام للواقع الكئيب سيطر على فقهنا عدة قرون، فرضي باغتصاب السلطة. وأعطى الحكام المتغلبين صفة شرعية!! ورضي بانحرافات ثقافية واجتماعية أخرى، كما يرضى العليل بصحبة داء عز دواؤه.

ويخيّل إلي أن انهزام دولة الخلافة الراشدة، ثم انهزام القوى المعارضة كلها في أعصار وأمصار شتى، ترك في النفوس عقدة لا تحلّ...

بيد أن الله لا يرضى أن تهمل هداياته على هذا النحو، ثم يترك المفرطين دون عقاب!

لقد قلنا مراراً: إن سنن الله الكونية تثأر ممن يتجاهلها وتواجهه بعواقب تفريطه! وأمة يستقر فيها اغتصاب الحكم[21]، وتعشش في أجوائها الخرافات والانحرافات، لا بد أن تدفع ثمن هذا السلوك المعوج، ولن يغني عنها ادعاؤها للإسلام، لا سيما إذا كان حكام الدول «الكافرة» أعدل، ومعاملاتهم لشعوبهم أجدى وأرحم، وإذا كانت هذه الشعوب أدنى إلى منطق الفطرة في علاقاتها الداخلية.

ونحن ـ مسلمي العصر الحاضر ـ نذوق ثمار تفريط قديم! ولكننا ورثنا نظريا الوحي الإلهي مصونا، كما ورثنا رغبات عميقة في العودة الى الحق والتوبة إلى الله!!

وأرى ونحن نبني هيكلا جديدا لديننا ودنيانا، أن ندرس الحضارة الجديدة بما لها وما عليها، وأن نستفيد من تجاربها في دعم مقرراتنا، ولا معنى أبدا لتجاهل

(21) في بعض الفترات كانت الأمة تنام ولا تعرف من سيغتصب الحكم في الصباح!!.

الجهود الإنسانية التي بذلت في إبداع هذه الحضارة.. كما ينبغي اتقاء سوئها وغرورها، وشرهها، وافتياتها المفضوح على غيرها..

إن لدينا مواريث نفيسة في تاريخنا الثقافي والسياسي لا يجوز إنكارها، بيد أن هذه النفائس اختفت في ركام من عهود الانحلال والانحراف، وما أطولها في ماضينا! والمأساة التي نواجهها الآن أن كاتبين وموجهين يذهبون الى هذا الماضي ويعودون منه بما يضر ولا ينفع، وربما نقلوا منه أسانيد للاستعمار الداخلي. والخلخلة الاجتماعية التي نعاني منها...

إن مصادر الأسوة العلمية والعملية معروفة ومضبوطة في فقهنا، وقد برز رجال كبار في تاريخنا العلمي، ما زعم عاقل العصمة لهم، ولا طالبنا باتباعهم في كل ما قالوا وفعلوا.

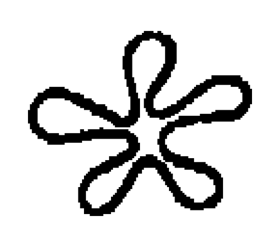
خذ مثلا أبا حامد الغزالي، إنه رجل من ألمع رجال التربية والأصول والفقه والفلسفة. وجوانبه المشرقة كثيرة، ونحن نقتبس منه بدائع وروائع... لكن هل نتابعه في قصوره في علم الحديث؟ هل نتابعه في موقفه السلبي من حكام عصره[22]، وهم طراز رديء؟ هل نتابعه في غفلته عن طلائع الحملات الصليبية التي أكلت المسلمين يومئذ؟ إن الحسنات تستوقفنا، فنتملاها ونستفيد منها! أما الهنات فنحذرها ونباعد أمتنا عنها، وقد أفزعنا أن يظهر في صحوتنا الإسلامية المعاصرة رجال أغرار، لهم قدرة غريبة على نقل الأخطاء وتبنِّيها وبعثرتها في طريق نهضتنا.

وقد استيقنت أن زبانية الاستعمار العالمي يستبشرون بهذا الصنف من الموجهين الأغبياء، وربما مكنوا لهم ورحبوا بهم، فليس أسعد لأعدائنا من شعب

---

(22) لأبي حامد مواقف إيجابية مع بعض حكام عصره، ورسائل مشهورة، وهي لا تنكر!.

يغتصب قيادتَه سارقُ زعامة، وليس أسعد له من بيت تديره امرأة جهول، وليس أسعد له من متدينين يستريحون لهذه الأوضاع، ويحيون في ظلها انصاف بشر، ويرغِّبون الناس في ذلك على أنه الإسلام...



أثر الأهواء والعصبيات على الدعوة الإسلامية

العصبية الأوربية : خصومة غير مشرِّفة

عالمية الإسلام ليست موضع جدال، وقد نهض السلف الأول بواجبه في نقل الدين من الجزيرة العربية إلى ما وراءها من بر وبحر! وعرفت دولة الإسلام الأولى أنها أمة ذات رسالة كبرى فكرست قواها المادية والأدبية لإبلاغها... وأصحاب محمد عليه الصلاة والسلام كانوا امتدادا لنوره وطهره وشجاعته وجهاده! وقد زوّدهم القرب منه بقدر هائل من الروحانية والتضحية وطلب الآخرة والترفع عن الدنيا ومغانمها، فلما اصطدموا بالضلال الجاثم على صدر الأرض من قرون استطاعوا فلَّ حدّه. وكسر قيده، وإطلاق الجماهير العانية تعبد ربها كيف تشاء!! وما كان إلا أصحاب محمد مَنْ يقدر على هذه المهمة الصعبة!

سيقول السفهاء من الناس: خرجوا من جزيرتهم مهاجمين، وما كان هذا يجوز!

ونقول: مَنْ الذين هاجمهم أصحاب محمد؟ في حياة محمد نفسه قاتلوا الرومان في مؤتة وتبوك فمن الذي جاء بالرومان الى مؤتة وتبوك، وهي بلاد عربية؟ إن الرومان أوربيون احتلوا سورية ومصر وغيرها، وبسطوا سطوتهم على شمالي الحجاز. فكيف يعتبر اجتياحهم لأراضي الآخرين دفاعا، وإخراجهم من هذه الأراضي عدوانا؟؟

إن دراسة التاريخ بهذا التبجُّح ديدن الأوربيين، وهم الآن ماضون مع طبيعتهم في عدّ العرب الذين يقاتلون «إسرائيل» إرهابيين مهاجمين معتدين! فإذا قلت لهم: إن هؤلاء العرب هم أصحاب الأرض وسكان مدنها وقراها من قرون سحيقة وإن هؤلاء اليهود طارئون من أيام، قدموا من بولندا وروسيا وانجلترا وأمريكا. ولا حق لهم هنا... قالوا في تبجح: ولو ...

أهناك شيء غير القوة يمحو هذا الطاغوت؟ إن القتال الذي أعلنه أصحاب محمد على الرومان والفرس هو أشرف قتال سجله التاريخ. وهو وحده الذي أدّب المتكبرين وأنقذ المستضعفين وليت هذا القتال ـ ببواعثه ونتائجه ـ يتكرر في الدنيا ليحق الحق ويبطل الباطل.. أيعني ذلك أن القتال وظيفة النبيين والحواريين، أو أنه حرفة أصحاب محمد في العالمين؟

كلَّا بداهة، فقد شرح الله الغاية من رسالة محمد، فقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**(*) وشرح عمل المسلمين بين الناس، أو النظام الذي يقيمونه فقال: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**[23].

(*) سورة الأنبياء 107.
(23) سورة آل عمران 104.

فالدولة الإسلامية تفعل الخير وتدعو إليه، وتعلم الحقيقة وتنشر أدلتها، وتأمر بالمعروف في الداخل والخارج، وتنهى عن المنكر كذلك، وهي مع السلام ضد العدوان، ومع العدل ضد الطغيان، ومع الإنسانية ضد الحيوانية، وعندما قاتلت كانت محكومة بقول الله لها: **﴿وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**[24]

والحروب الأولى في تاريخنا تمحضت لله ومشت في سبيله، وفوجئت الشعوب السجينة داخل المصيدة الرومانية بقوم اكتفوا بتقليم أظافر «الاستعمار» القديم، ثم **﴿أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾**[25]، واختفى كبر الرومان، وسلبهم ونهبهم، وارتفع نداء «الله أكبر» فعلم الناس أنهم أحرار، وأن الأرباب السابقين سقطوا..! فشرعوا يدخلون في الإسلام أفواجا أفواجـــا، وإذا شمال إفريقية كله وغرب آسيا وشرقها حتى الهند والصين يتدفقون على الدين الجديد... إن الفتوح العقلية والروحية. كانت آلق شعاعا، وأقوى اندفاعا من النجاح العسكري، وما فعله الأصحاب والأتباع اتّسم بطابع الخلود، فالأقطار التي حرروها هي كهف الإسلام إلى اليوم، وهي التي تشتبك في كفاح ثقافي وسياسي. مع الاستعمار الجديد، ومع فداحة ما تحملت فهي ترجو الآخرة، وترقب النصر الحاكم.

والذي نلحظه أنه مع انصرام عهد الراشدين لم يحسن الحكام الرسميون ـ في الأغلب ـ العمل للدعوة الإسلامية ولم يُنَمُّوا أجهزتها، أو يلبوا مطالبها. وتركوا للكتل الشعبية أن تقوم هي بهذا العبء كله أو بعضه، وقد يعاونونها أو يهادنونها! أما أن يرسموا السياسة ويتابعوا التنفيذ فلا!!

---

(24) سورة البقرة 190.

(25) سورة الحج 41.

قد يقول قائل: هذا تَجَنٍّ على خلفاء أمية والعباس والعثمانيين، فقد رفعوا راية الدين وقاتلوا تحتها بقوة! وماذا عساهم يفعلون مع أناس عرفوا الإسلام وعقائده وفضائله، ومع ذلك ﴿جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً(*)﴾؟ إن الهنادك قد يذبحون عشرات ومئات من المسلمين لو أن واحدا منهم ذبح بقرة! هل يجدي مع هؤلاء إلا السيف ـ ويمضي المعترض في مساءلتنا قائلا ـ:

وهل نسيت موقف أهل الكتاب المشحون بالبغضاء؟ إن كراهيتهم للإسلام ترشح من معين لا يغيض! وجمهرتهم تودّ لو خُسِفَ بنا وخلت الأرض منا.

هؤلاء الصليبيون ما إن تمكنوا قديما من دخول «بيت المقدس» حتى ذبحوا سبعين ألف مسلم. وحديثا احتموا بالجيش اليهودي، وقتلوا بأفحش الأساليب أربعة آلاف في مخيمات الفلسطينيين بصبرا وشاتيلا.. ولم تتحرر الجزائر من أرجاسهم إلا بعد أن ضحّت بمليون ونصف شهيد كي تستعيد المساجد التي حولها الفرنسيون إلى كنائس. وتستنقذ جيلا من البشر سُرِقت عقائدُه ومعالمه جهرة واغتيالا...

لقد اشترك «المعمرون» الفرنسيون، ورجال الجيش، والشرطة في قتل قريب من أربعين ألف مسلم في أعقاب الحرب العالمية الثانية في مدينة «سطيف». لأن الأهالي نادوا بالاستقلال، وأملوا خيرا في مواثيق هيئة الأمم ثم جاء دور اليهود ليبيدوا شعبا وينشئوا على أنقاضه دولة لهم تحت سمع المؤسسات العالمية وبصرها وبين موافقتها ومعاونتها. إن القرآن ـ في معرض التعجيب والإنكار ـ يتساءل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً﴾[26] فما اللوم الذي يراد توجيهه لخلفاء ردّوا الوحوش عن حماهم. أو كسروا شوكتهم قبل أن يبدءوا العدوان؟

(*) سورة النمل 14.

(26) سورة النساء 45.

والجواب أني أدرك طبائع المخاصمين للإسلام وأن تاريخهم لا يشرف على اختلاف الليل والنهار، ومع ذلك فإني أوثر التمسك بتعاليم ديني في أسلوب البلاغ وطريقة الدعوة! لن أسأم من الإطناب في الشرح والإفاضة في البيان والاحتيال على الوصول إلى القلب الإنساني من كل طريق...

أريد أن يكون علم أعدائي بالإسلام كعلمي أنا به، مصداق قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَى سَوَآءٍ، وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾[27] والناس تحجبهم عن الحق ظلمات شتى، قد يعيشون ويموتون فيها. ونحن المسلمين مكلفون برفع المصباح حتى يهتدي الحيارى، وأخشى من مساءلة الله لنا: لماذا عاشت أمم دون أن تعرفني وتعرف كتابي؟ ودون أن تبصر سبيلي وتتبع رسولي؟؟ وقد اخترتكم لتقوموا بهذه الوظيفة، وتنهضوا بأعبائها؟؟

إن الدعوة تسبق القتال، والدعوة ليست كلمة عابرة أو خدعة ظاهرة، ثم تنشب الحروب، كلا، إنها بيان وانتظار ومعاناة وأخذ، ورد، ونقاش شُبه، وبحث قضايا وتقديم عون، وقطع الأعذار أمام الله والناس...

قلت لنفسي: أين كانت أجهزة الدعوة لتعرض على المنبوذين في الهند ـ وهم عشرات الملايين ـ حقوق الإنسان في أطواء كلمة التوحيد؟ إن أولئك المنبوذين كانوا يُعَدُّون دفساً، وقد آثرت نبيلة هندوكية أن يموت ابنها غرقا ولا ينقذه أحد المبوذين، لأن جَسَدَ ابنها إذا مسه هذا المنبوذ تلَوث أو تنجَّس، والموت خير من حياته بعد هذا المسّ..!

أين كان الدعاة ليقولوا للهنادك كلمة عمر: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا..»؟ وليقولوا للمنبوذين: إن المؤمن لا ينجس، وإن البشر كلهم اخوة كما قال محمد رسول العالمين؟؟

(27) سورة الأنبياء 109.

إن تجمد الإسلام في الهند وإن أرشد ثلث السكان أمر عجب، وليس أعجب منه إلا توقفه في الصين! وإذا كانت الاشتراكية الماركسية أو الماوية قد وحدت ألف مليون من البشر، لأنها داوت تفاوت الطبقات وأزمات الجوع هناك، فمن كان يعرِّف هؤلاء أن عمر بن عبد العزيز بحث في أرض الإسلام الواسعة عن فقير يأخذ الزكاة فلم يجد، فاضطر الى أن يشتري بها عبيدا ويحررهم، وهذا من مصارف الزكاة!! إن الدعاة في هذه البيئات، يعالجون أدواءها، بما يحسم الآلام، ويرفع قدر الإنسان ويربط الناس بربهم ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.(*)

وليست الدعوة وعظا فارغا، وبلاغا غامضا،... ثم يكون القتال كما يتصور البُلْهُ من علماء الدين...

وتلفت غرب الدولة الإسلامية الكبيرة وشمالها، فوقفتني الحرب المزمنة بين الروم والمسلمين أو بين الفرنجة والعرب... لقد خرج الرومان من الشام بعد هزائمهم الساحقة أمام أصحاب محمد، تاركين وراءهم ذكريات سوداً بين النصارى الذين يخالفونهم في الفكر اللاهوتي.. وليس للوجود الروماني بالشام سناد من عقل أو نقل فما صلة دمشق والقدس ببيزنطة أو روما؟ ومن الذي منح القوم حق استيطان هذه البلاد ومزاحمة أهلها عليها؟ الواقع أنها صفاقة أوربية قديمة جديدة، لقد خرج الفرنسيون الصليبيون من الجزائر بعد مذابح طافحة بالوحشية. وهم بعد ما خرجوا منها لا يزالون يحنّون إلى العودة إليها. وكذلك كان الروم بعد ترك الشام فإن رغبتهم في العودة من حيث طردوا ظلت تراودهم، وتجعل القتال موصولا على حدود الدولتين الإسلامية والنصرانية، وكان للمسلمين

(*) سورة قريش 4.

رباط دائم على تلك الحدود، كما كانت الحرب بين كرٍّ وفرٍّ في جزر البحر الأبيض كلها...

هل كان هناك بديل عن هذه المأساة الدائمة؟ رأيي: نعم! كان يمكن إقامة علاقات تجارية، ثم علاقات ثقافية، كما كان يمكن استقبال زوار القدس بترحاب له ما بعده، لا سيما أننا ما وضعنا عائقا أمام النصارى الذين يقيمون مراسم دينهم!

والحق أن أمتنا ما تنكص عن هذه الخطوة! لكن رجال الدين والسياسة في أوروبا كانت تحركهم ضغائن لا تبرد نارها، فهل كان الموقف الأوربي من وراء عطل أجهزة الدعوة عندنا؟ وعدم انسيابها بين الكارهين للإسلام، الشاتمين لمحمد ودينه بسفاهة منكرة؟ الأمر يحتاج إلى تفصيل.

كانت الحكومة في دولة الخلافة مسئولة عن الدعوة الإسلامية، وكان رجالها يرون أنفسهم قوامين لله، يحاربون المعصية، ويزرعون الطاعات، ويضربون المثل بذواتهم في العبادة الخالصة، كأن فيهم قوله تبارك اسمه: ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[28].

والفارق كبير بين حكم يرى نفسه مسئولا عن الدين وحمايته ونشر تعاليمه وبين حكم يتوسل بالدين لمدّ سلطانه ودعم أركانه.

إن الوسيلة قد تترك بعد بلوغ الهدف، أو قد يستبدل بها غيرها إن سدّ مسدَّها، أما دولة الخلافة فقد كان الإسلام منهجها وهدفها، وكان الخلفاء يرون أشخاصهم آخر ما يكترث به! كانوا ربانيين ينشدون الآخرة! وكانوا علماء يعرفون كيف ينصرون دينهم في كل ميدان..

---

(28) سورة الأنبياء 90.

والخلفاء الراشدون والأصحاب العظام من حولهم هم الذين جعلوا عالمية الإسلام حقيقة واقعة بعد ما كانت مقرَّراً نظريا أو بشريات تتلى في الكتاب الكريم...

ولولا دسائس اليهود والمجوس التي نجحت في قتل عمر وعثمان وعليّ لكان للأرض مستقبل آخر، ولانتهى أجل الضلال في الدنيا، ولكن لله قدراً آخر **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)**[29] وقد بذل الأمويون والعباسيون والعثمانيون جهودا كبيرة ليقولوا للناس: إنهم يقومون بعبء الخلافة الراشدة، وإنه إذا تغيرت الوجوه فلن تتغير الأعمال.. أكانوا بينهم وبين أنفسهم صادقين؟ ما أشك في أن فيهم من أخلص لله سريرته وأسلم له وجهه وجاهد في سبيله ما استطاع! ولست دياناً للخلق أبتّ في مصايرهم عند ربهم، وإنما أكتب ما أكتب التماس عبرة، وكيما أجنب الصحوة الإسلامية عثرات قديمة، وهل يُدرس التاريخ إلا من أجل ذلك؟

إن موجة الفتح التي أسهم فيها التابعون، مضت لمستقرها في العهد الأموي ثم توقفت لأمر ما، أما الاهتمام بمستقبل الدعوة في أرجاء العالم، واكتشاف الأساليب المناسبة لإنجاحها، فقد أخذ يتضاءل من الناحية الرسمية أو يأخذ طرقا مسدودة..!

ما السبب؟ أشخاص الخلفاء أنفسهم، والطريقة التي جاءوا بها إلى منصب الخلافة! وسرعان ما تحوَّل معظم نشاط أولئك الخلفاء إلى المحافظة على الحكم في ذراريهم، وإلى مكافحة الفتوق التي يحدثها الناقمون والمعارضون... ثم جاء العثمانيون فقلّدوا من سبقهم ، ولم لا؟

---

(29) سورة هود 118، 119.

والمتأمل في القيمة الذاتية للأشخاص الذين وُلُّوا أعظم مناصب الدنيا يشعر بالحسرة...

إن بعض خلفاء بني العباس لو بيعوا رقيقا ما جاء أحدهم بثمن طائل. ولكن عنجهية العرب فرضتهم على الإسلام ليقودوه بضعة قرون، فماذا حدث؟ قبعوا في قصورهم، واغتصب السلطة منهم أمراء ووزراء من أجناس أخرى، ولقي أغلبهم مصيره على شروحه!!

الدعاة يقومون بدور القيادة

لكن الدعوة ـ بطبيعة الإسلام السيالة ـ لم تتوقف، لقد انطلق الفقهاء، والمربون، والتجار إلى شرق آسيا وجنوبها، وإلى شاطئ الأطلس الشرقي في إفريقية وجنوب الصحراء الكبرى، ولم يكن هناك فتانون خطرون بعد انهزام الفرس والرومان وما بقي من أمراء يصدّون عن سبيل الله سهل إقناعهم أو اتقاء شرهم...

ونشأ وضع عجيب عقب ذلك الانسياح الباهر، فقد دخلت أقطار في دين الله لم تعرف عنها بغداد أو القسطنطينية شيئا، وماذا تعرف هذه أو تلك عن «الفلبين» «والملايو» «واندونيسيا»؟

إن أجهزة الدعوة المركزية مشلولة في هذه العواصم! والغريب أن الصليبية العالمية اليقظى لم تقف ساكنة!

لقد انتهزت الفرصة، وأغارت على هؤلاء الموحدين، وهي منذ قرون مشتبكة معهم في حرب حياة أو موت، والعرب، ومن حذا حذوهم من الترك لا يسدون لإخوانهم يدا، ولا يدفعون عنهم كيدا...

بل إن المسلمين في القرن الرابع، وفي ظل الخلافة العباسية المعتلّة المختلّة تحوّلوا إلى فرق تتقاتل على السلطة وتتنازع على الإمارة، يكيد بعضهم لبعض ويلعن بعضهم بعضا، وما زالوا كذلك حتى جرفتهم الحملة الصليبية الأولى، ثم غارات التتار التي أسقطت بغداد، وقتلت خليفتها المسكين...!!

لم تستفد الدعوة الإسلامية شيئا يذكر خلال الحكم العباسي، بل إن سوء التطبيق لتعاليم الإسلام نال من قدرتها على الانطلاق البعيد..

حكام يتهارشون على الدنيا ويتقاتلون على المناصب، أجهزة الشورى صفر، العدالة الاجتماعية مضطربة، قد تنكب بعض الأقطار بمجاعات فلا تجد الغوث، العلم الديني انحصر في فلسفات كلامية لا تمسّ القلوب، أو مسائل فقهية ليس لها عند الله وزن...

ومعروف أن أجناسا شتى دَخلت في دين الله من الهنود، والفرس، والروم، والترك، والكرد، والزنوج، ... الخ. وكان المفروض أن تنصهر كلها في بوتقة الأخوة الإسلامية، لكن ما دام العرب يشمخون بعرقهم فلماذا تسكت الأجناس الأخرى؟

إن العالم ــ وراء دار الإسلام ــ لم ير في الطريقة التي تحكم دولة الخلافة ما يعجب، بل رأى ما ينفر، وقد سقط العباسيون كما سقط من قبلهم الأمويون ليؤكدوا حقيقة علمية وتاريخية ثابتة، وهي أن العرب لا يشدُّ كيانهم إلا الدين! فإذا خرجوا عليه تيقظت فيهم جاهليتهم فهلكوا...

وقد أعلنت هذه الحقيقة عن ثباتها واطّرادها بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس واندحار الدويلات التي تخلفت عنها! الداء هو الداء نَهَم مسعور إلى السلطة، وتعارك وحشيٌّ على الإمارة، وارتداء للدين على جسد أجرب، ومتاجرة بفقه الفروع لا تنطلي على الله، لأن معاقد الدين وقواعد الأخلاق واهية! «أتواصوْا به؟ بل هم قوم طاغون؟».

وبعد سقوط الخلافة العباسية بقرن تقريبا، كان جنس آخر قد اعتنق الإسلام واعتزَّ به وأنشأ دولة تجاهد من أجله، اتجهت صوب الأناضول بقوة، وقاتلت الروم ببأس، وما زالت في حرب مظفرة معهم حتى أخرجتهم عن آخرهم من آسيا وظلت تطاردهم في شرق أوربا بعد ما استولت على القسطنطينية... تلك دولة الأتراك العثمانيين، التي تسمَّى سلاطينها بخلفاء الإسلام!

ولست كراهاً للترك، ولا ناسيا ما أسدوه للإسلام من أياد. ولا متهما الشعب التركي بما هو منه براء: فهو شعب مؤمن جياش العاطفة شجاع مقدام.

لكن الإسلام دين عربي الوحي، كتابه عربي وسنته عربية وثقافته الفقهية والخلقية عربية. وقد رفض الترك أن يتعربوا فكيف يستطيعون مع هذا الرفض قيادة الرسالة والدعوة؟؟

كان يمكن أن يظلوا كما يريدون، ثم يستعينوا بالعلماء العرب لينشروا الإسلام، وينشئوا أجيالا جديدة عليه، بيد أنهم لم يفعلوا....

ولو أرادوا لاستعانوا بمصر وفيها الأزهر، وجعلوا من القدرة العلمية عند المصريين وغيرهم ما يعزز فتوحهم، ويؤسس للإسلام مجتمعات واعية هادية...

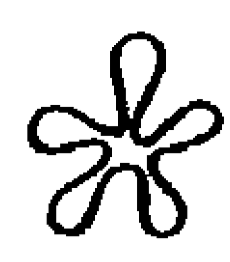
إنهم لسوء الحظ لم يفعلوا، بل ولى الحكم السلطان سليم الأول، وكان رجلا نزقا سفاحا مضطرب المزاج فأغار على مصر وخرّب مستقبلها بضعة قرون...

وبديه أن يعجز الأتراك عن نشر الدعوة خارج أرض الإسلام، بل إنهم داخل أرضه لم يكن لهم كبير اهتمام بدور العلم. وكانت النتيجة الكئيبة أن رانت على الأمة الإسلامية كلها ظلمات بعضها فوق بعض!

فلما اجتاحها الاستعمار العالمي، الصليبي ثم الشيوعي، كانت الأمة كالغريق الذي يحاول النجاة من الطوفان، والشاطئ أمامه بعيد بعيد..

ونسأل نحن ـ بعد هذه النظرة العاجلة الشاملة ـ هل استفاد العرب من الماضي وقرروا إخلاص العمل للإسلام، والبعد عن طباعهم القديمة؟ وترك الاعتزاز بالنسب، والتعلق بالسلطان، والشَرَهِ في حب الدنيا.. كلا.. إن طنين الضلال القديم ملأ الآذان مرة أخرى، وها نحن أولاء نسمع عن بعث عربي وقومية عربية ! !

كل ما هنالك من فرق. أن العرب الأول كانوا يرفعون راية الإسلام، أما عرب هذه الأيام العجاف فهم ينكرون الإسلام أو يتنكرون له ! إن طنينهم يشبه طنين الذباب في أماكن القمامة ومجامع الأقذار.. والأمر يحتاج إلى مقادير كبيرة من المطهرات حتى تنجو أمتنا من هذا البلاء....



قصور الحكم وأثره في الاضطراب العلمي

كانت دولة الخلافة الراشدة بادية الحرص على سلامة المعرفة التي تصل إلى الجماهير. وقد رأينا عليّ بن أبي طالب يرقب المساجد، ويتسمع إلى ما يلقى بها من دروس. وقد أمر بطرد أعداد من القُصَّاص المتحدثين إلى العامة. واستبقى الحسن البصري وحده..! إن الميدان الديني مرتفع خصب للمشعوذين والخرافيين، ولا يجوز أن يستخفي أولئك في لباس الوعظ والفقه ليفسدوا الأفكار، ويتحرفوا بالناشئة. وقد كان عمر يقظا إلى حدّ الغيرة نحو كل ما يمس العقيدة والسلوك. وكان يوصي أمراء الجيوش: بجمع الناس على كتاب الله، والإقلال من الأحاديث النبوية.

والسبب في ذلك أمران: أولهما خوفه من رواية الواهيات والترهات. والآخر خوفه من عدم فهم الحديث على وجهه، واختلاف الأنظار مع اختلاف المرويات.

وقد رأيت شبابا غضاً يتلقى بعض الأحاديث، وهو دون مستواها، ويشعل بها خلافات مخوفة العقبى، وقد يكون الجيش مكلفا بدخول مدينة، أو بلوغ هدف فإذا هؤلاء يحدثون فتنة حول قصر الثوب، أو الصلاة في النعل، أو الشرب عن قيام فيصاب الإسلام من غبائهم..

لكن الأمر تغير على نحو ما بعد انتهاء الخلافة الراشدة، واستيلاء خلفاء قاصرين على دفة الحكم.. وليس يعنينا الآن التغير الطفيف الذي وقع في العهد الأموي، ووجد للفور من يقوم بحق الله في إصلاحه، وإنما يعنينا ما وقع في أيام الخلافة العباسية بعد أن استقرت الأمور ــ كما يقال ــ وبدأ عهد الحضارة..! لقد تدبَّرت قضية الترجمة التي نقلت إلى لغتنا العربية تراث أمم أخرى أهمها اليونان! أكنا ــ نحن المسلمين ــ فقراء الى هذه المعارف المنقولة؟

وأبادر إلى القول بأني منهوم إلى الاطلاع على كل ما لدى الآخرين من علم، وأني لا أرخص حكمة جاءت من عدو! ولا أزهد في حصاد الذكاء البشري مهما كان موطنه..! بيد أن ذلك لا يعني تأخير ما لديَّ. واستقبال الجديد بحفاوة تنسي الأصل..

إنني أعرف الله عن اتصال، فلدي نبوة وبين يديَّ وحي!!

وغيري يعرف الله عن استدلال، لأنه محروم من العلاقة التي ظفرت بها. واستدلاله تارة يقوم، وتارة يكبو، فكيف أزاحم القديم الأصيل، بدخيل خفيف الوزن؟

يرى أرسطو أن الله خلق العالم، وبعد أن خلقه تركه، وانصرف عنه، وانقطع تدبيره له(!) فهو لا يدري عنه شيئا.

هل هذا اللغو ينقل ويوضع بإزاء قوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**﴾[30].

لقد استغربت من شوقي رحمه الله أن يستدل على عظمة «التوحيد» الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام بأنه سبق أن نادى به الفلاسفة اليونان!!

بنيت على التوحيد وهو حقيقة ... نادى بها سقراط والحكماء!

---

(30) سورة فاطر 41.

ان سبق هؤلاء ليس مفخرة! وتأييدهم أو رفضهم لا يقدم ولا يؤخر.

لقد كان المطلوب من الخلفاء العباسيين أن يترجموا الإسلام للناس في كل قطر لا أن يترجموا للمسلمين أفكار وخيالات الأمم الأخرى!

إن عالمية الرسالة الخاتمة تفرض على خلفاء محمد ـ لو كانوا صادقين في هذه الخلافة ـ أن يترجموا حقائق الدين وأحكامه السياسية والاجتماعية، ومبادئه الروحية والخلقية، وأن يضعوا جوائز سنية لمن يقوم بهذا الجهد. ويذهب به في آفاق الأرض ليشرح صدورا وينير عقولا... لكن هؤلاء الخلفاء الورثة لم يكونوا على مستوى المناصب التي ختلوها فكان ما كان...

وندع الحديث في مضار هذه الترجمة على فكرنا الإسلامي النقيّ، وننظر في أمر آخر، لا نزال نضار منه إلى اليوم...

الإسلام منهاج كامل يوضح العلاقات الآتية:

علاقة المؤمن بربه على أساس من التوحيد المطلق والسمع والطاعة والاستعداد للقائه سبحانه بتسامٍ وطيبة.

علاقة المسلم بالدولة التي تحكمه، كيف يختار الخليفة؟ كيف تتم الشورى؟ ما نظام النصيحة والتواصي بالحق والتعاون على البرّ والتقوى؟

علاقة المسلم بالمجتمع أول خلية فيه الأسرة ـ كيف يتم بناؤها وتؤدي واجباتها؟ كيف يتعامل المسلم مع الآل والأقارب والجيران، وسائر الناس؟ ما نظام الملابس وحدود الاختلاط؟ كيف نعتاد المسجد؟ كيف نتلقى الدروس في شتى المراحل.

علاقة المسلم بالبيئة والحياة الدنيا: كيف نقوم بأعباء المعايش المتنوعة؟ كيف توزع مواهب الناس على مرافق الحياة؟ كيف نملك الحياة لنسخرها في انجاح رسالتنا؟ ما هي الواجبات الموقوتة وغير الموقوتة التي نجاهد في سبيلها..؟

ومن السهل اقتباس الآيات والأحاديث التي تشرح ذلك كله، وتعرف المسلم أين يضع قدمه، وأين يولّي وجهه؟؟

وتقديم هذه الحقائق في خلاصات علمية مسئولية كل عامل للإسلام في أي ميدان ثقافي أو سياسي.. ولا يجوز آن يمتدّ عنصر على حساب عناصر أخرى. فإن النسب في عناصر الغذاء المعنوي كالنسب في عناصر الغذاء المادي، لا بد من رعايتها.. كما أن إهمال عنصر ما، أو استبعاده مرفوض فإن شُعَب الإيمان كالعقاقير التي يتكوّن منها الدواء لا يتم الشفاء إلا بتجميعها كلها..

والذي حدث في تاريخ ثقافتنا، يحتاج إلى نظر ومراجعة. حتى لا تطول شكاتنا من خلل ملحوظ أو نقص قائم.

القصور في المنهج .. خطر داهم

إن الاستبحار العلمي مضى في طريقه قبل الوفاء بصورة المنهاج الكامل الذي أشرنا اليه آنفا، وقبل كتابة خلاصات وجيزة له، للتعليم والدعوة في الداخل والخارج.

ونشأ عن ذلك أنك ترى دارسا لعلم الكلام، أو لعلم الفقه، متمكنا من قضايا العلمين المهمين. ولكنه لا يحسن إلا الجدل وتشقيق الفروع! أما استحضار الخشوع، واستشعار جلال الله فإن نصيبه منهما قليل، ذلك لأنه لم يلق التربية النفسية المكافئة لما نال من معارف أخرى..

ونشأ عن ذلك أن ترى امرءًا ماهرا في الأحاديث وقبولها وردِّها، بيد أن بصره بالقرآن كليل وخبرته بما فيه من توجيه وحكمة لا تسرّ، وقد يكون الأمر بالعكس فترى مفسرا يحسن إعراب الجمل، وتقرير بعض الأحكام مع غفلة شديدة عما صحّ من سنن في القضايا التي يعالجها..

وقد ترى مطلعا على جملة من علوم الدين، بيد أن إدراكه للبيئة من حوله قاصر، وإدراكه للكون والحياة أشد قصورا، ومن ثم يصدر أحكاما وفتاوى تصيب الدين في مقاتله.

وأعرف أن الحكم الفردي جمَّد عدة فرائض سياسية، ومالية! وسيَّر الفقه بعيدا عما يمسُّ استقراره! كما أعرف أن بعض البيئات غلَّبت تقاليدها على تعاليم الدين، كما حدث في بعض الشئون النسائية.. لكن الإسلام ظل وسوف يظل مضبوط المصادر نقي المنابع، وأن أصحاب الفطر السليمة، والآراء النزيهة قادرون على العودة اليه، والاستمداد منه دون عائق محترم!

وأنفي بقوة كل ظن أني أنتقص رجالنا. فإنني شديد الإعجاب والولاء لأئمة الفقه، والتفسير، والحديث، وقد تابعت وتدبرت الكثير مما كتب في علوم الكلام والتصوف[31] والأخلاق، ونفعني الله بما شاء من تراث السلف والخلف غير أنني وجدت الحقائق هنا وهناك، فلم ألزم مدرسة واحدة ولم أر لأحد عصمة.

وأؤكد ما قلته: إن القراءات غير المتوازنة تخلق فكرا مشوشا. وإن الإيغال في دراسة مَّا دون قاعدة مشتركة من علوم أخرى لا يعطي ثقافة سليمة.

وقد بلوت شيوخا يتكلمون في الإسلام وقلوبهم وجلة من التعرض لساسة الحكم والمال. بل قرروا ــ من غير أيْمان مغلظة ــ ألا يمسُّوا هذه الناحية..

وآخرين لا يعرفون ذرة من ضغط التقاليد البشرية على التعاليم السماوية. فهم ينطلقون دعاة إلى الإسلام، والحقيقة المرة أنهم يدعون إلى معالم مجتمعهم البالي، ومواريثهم الهشّة، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا..

كما بلوت شبابا غرورهم أكبر من تفكيرهم، يستمعون إلى أولئك الشيوخ دون مراجعة.

---

(31) المقصود التصوف المجاهد العامل التقيّ من البدع والشوائب، أي الذي لا يزيد عن كونه مجاهدة للنفس وجهادا في سبيل الله.

وشعرت بانكشاف العجز العلمي عند هؤلاء جميعا عندما زار الأستاذ «جارودي» القاهرة ودول الخليج. وقابل نفرا من علماء الدين التقليديين.. إن الرجل اعتنق الإسلام بعد ما أحسّ إفلاس الحضارة الغربية، واستوحش من خوائها الروحي، وشرودها الفكري. وبعد ما درس الإسلام دراسة خبير بالأديان والفلسفات. عارف بالحضارات البشرية وأسرار ازدهارها وانهيارها...

وقبل أن أذكر ما لقي في عالمنا العربي أسوق أجزاءً من محاضرة تنبئ عن فكره وأمله، ومعرفته وإخلاصه، ألقاها تحت عنوان «الإسلام وأزمة الغرب»

قال: لن أتحدث هنا عن الإسلام بصفة عامة. ولا حتى إسهامه ـ المجحود ـ في الحضارة الإنسانية. وإنما أتحدث عن الإمكانات الجديدة لتوسعه وانتشاره اليوم في عالمنا الغربي. وعن الأسباب ـ المتصلة بروح العقيدة الإسلامية ذاتها ـ التي أتاحت مثل هذه الإمكانات.

إن الاسلام عند مولده أنقذ العالم من الانحطاط الشامل، فقد كانت الامبراطوريات التي تسود العالم مفككة منحلة، سواء الفارسية أو الرومانية، أو أرجاء الهند. أو الشمال الافريقي أو ممالك «الفيزقوط» بأسبانيا... ثم جاء القرآن معلنا بقوة علوّ الخالق ومجده الذي تفرد به، وبانيا على هذه الوحدانية نوعا جديدا من البشرية المتساوية في عبوديتها لله سبحانه.

وبذلك منح الألوف المؤلفة من الناس. وعيا بمدى الكمال الذي يحرزونه. عندما يعرفون ربهم ويرتبطون به، إن «الربانية» هي الشرف الحقيقي للإنسان. والبُعْدُ الذي يجتازه ليؤدي رسالته في الحياة...

والإسلام اليوم قادر على الإسهام بهذا العنصر الغالي لتحصين الإنسانية وحياطة مستقبلها، وحمايتها من المنزلق الذي يوشك أن يبتلعها..

إن المدنية الحديثة قضت على التسامي الروحي، وأيقظت الأثرة الحيوانية، وأقرت نمطا من الحياة يمتاز بجنون التنمية وزيادة الإنتاج ثم تسخير هذه النتائج الكبيرة لخدمة أغراض خسيسة..

وماذا نرى بعد انفراد الحضارة الغربية بقيادة العالم، ومرور خمسة قرون على هيمنتها المطلقة؟ إننا نلخص الجواب في أرقام ثلاثة:

«بعد تخصيص 600 مليار دولار سنة 1982 للإنفاق على التسلح أصبح كل ساكن من سكان الأرض تحت تهديد ما يعادل أربعة أطنان من المتفجرات، وفي الوقت نفسه تم توزيع الموارد والثروات ـ وقد تكاثرت جدا بفضل التقدم العلمي ـ على نحو مثير للعجب في هذه السنة 1982 ، هلك خمسون مليون نسمة في العالم الثالث بسبب المجاعة وسوء التغذية.

أما صانعو الحضارة فهم متخمون..

ومن الصعب أن نسمِّي تقدما ذلك المسار التاريخي الذي سلكته الحضارة الغربية.

إن كدح البشر منذ ظهروا على وجه الأرض مُهدَّد بالتوقف ، بل لقد أصبح ميسورا لقلة من الناس أوتيت تفوقا صناعيا رهيبا أن تمحو كل أثر للحياة..

هناك رغبة عمياء في زيادة الإنتاج، إنتاج أي شيء دون تساؤل: لمن؟ ولماذا؟ ولعل الواقف وراء دولاب الصناعة لم يرفع نظره الى السماء يوما، أو يتذكر ربه في لحظة رشد!

وعلى الصعيد السياسي قامت علاقات داخلية وخارجية تتسم بالعنف، محور الصراع فيها مآرب الأفراد والطبقات والأمم، ونزوع عام الى الهيمنة وفرض الذات...

أما الصعيد الثقافي فيمتاز بفقدان المعنى والغاية، قامت «تقنية»[32] غايتها التقنية لذاتها وعلم يبحث في العلم لذاته، وفن يخدم الفن وحده، وحياة تتحرك دون هدف..

وفي مجال العقيدة اختفى مفهوم التسامي، والاستعلاء على الغرائز الدنيا، الكلُّ أخلد الى الأرض واتَّبع هواه، ليس للإنسانية صبغة طهور، ولا اتجاه إلى الله.

الربانية أسطورة من آثار ماض سحيق، ولمن شاء أن يمضي هائما على وجهه غير مرتبط بنظام نفسي عتيد!

يقول[33] الأستاذ رجاء جارودي: «إن الثقافة المدعية المغرورة التي تعتمد عليها هذه الحضارة ترى حينا حصر الحياة في «الضرورة والصدفة» كما يزعم أحد علماء الأحياء،وترى حينا جعلها عاطفة جوفاء لا طائل تحتها، كما كتب أحد الفلاسفة، وترى حينا نسبتها إلى اللامعقول كما وصف أحد الروائيين، ولعل الإسفاف بلغ منتهاه فيما أفاضت الصحف ردحا من الزمن عن موت الإله! وموت الإنسان وموت كل شيء كما يردد دعاة العدم والمتنبئون به...!!

إننا لا نعرف حضارة أغفلت إغفالا تاما: التساؤل عن معنى الحياة والموت مثلما فعلت الحضارة الأوربية الحالية.

والثقافة المادية التي تحتضنها تقوم على أربعة مبادئ زجَّت بنا ــ بعد خمسة قرون مجموعة ــ إلى طريق مسدود، وإذا استمررنا فيه فسيتحر العالم بأسره!..
إن هذه المبادئ الأربعة هي:

---

(32) القدرة الصناعية المتفوقة، والكلمة شائعة في البلاد العربية، ويمكن تعريبها.
(33) تركنا الترجمة الحرفية لعدم وفائها بالمعنى، وتصرفنا بما يوضح غرض المحاضر.

(1) الفصل بين العلم والحكمة أي الفصل بين الوسائل والغايات ـ يعني أن هذه الحياة الدنيا غاية في ذاتها ، فليس وراءها حياة أخرى .

(2) إخضاع كل حقيقة لمفهومها الخاص ومقدارها المادي مع استبعاد كل اثارة للحب والايمان والمعاني الروحية.

(3) الفردية أو الأنانية التي تجعل امرءاً أو جماعة ما المحور والمقياس لكل شيء وترى النظام الموضوع ليس إلا توازنا مؤقتا بين الأطماع المتنافسة.

(4) إنكار التسامي. أو إنكار القدرة على الإفلات من هذه المتاهات المفروضة والاستكانة لتنمية حتمية تقتصر على «الكمّ» وتستبعد الخلق والحرية والأمل.

يقول «رجاء جارودي»: إن الثقافة الأوربية المعاصرة تنبثق من أصل مزدوج. من التراث اليوناني الروماني، واليهودي ـ المسيحي. وقد أغفلت عن عمد التراث العربي الإسلامي..

والأوربيون يرمون هذا التراث بنقيصتين:

(أ) أنه مجرد ناقل لثقافات وأديان قديمة، وربما ضم إلى النقل بعض التفسير والتعليق.. ولكنه ضمّ إلى ذلك إنكاره للمعتقد المسيحي ورفض قضية التثليث..

(ب) يمثل هذا التراث فترة سلبية منعزلة، ويمكن للمؤرخين أن يدرسوها ليحيطوا بها علما! إذا شاءوا.

ومن خلال هذا المنظار الداكن الجائر وصف الأوربيون الإسلام. بأنه لا يمكن أن يأتي بجديد. وأنه لا يحتوي على شيء حيوي. إنه جزء من تاريخ مضى لا جدوى من التأمل فيه أو ارتقاب خير منه..

يقول المحاضر: «إن هذا الاتهام المزدوج يجب أن يحارب، وأن يكشف زيفه، لأنه يمنعنا من فهم الحاضر وبناء المستقبل».

وقبل أن نثبت ردود الأستاذ جارودي على هذه التهم، نذكر طرفا من المشاعر السيئة التي يكنها أحفاد الرومان والفرنجة عموما ضد الإسلام وأمته...

إن الإسلام هو الذي قلص نفوذهم وطارد فلولهم شرق البحر الأبيض وجنوبه وقد مر حين من الدهر كاد البحر الأبيض يكون فيه بحيرة إسلامية! أليس جميلا أن يكون باني الجامع الأزهر رجلا من صقلية؟ بعد ما فتحها فقيه مالكي مشهور!

لقد ظل الرومان بضعة قرون ملوك هذا البحر وحكام شواطئه، ما أخرجهم منها إلا الإسلام، وما ردّ الحريات الى شعوبه المأسورة إلا دين الله بعد ما حمله العرب.

فلا غرو اذا تنامى حقد الأوربيين عموما على دين غسل الأرض من جبروتهم، وسوّاهم بغيرهم من عباد الله! وقد شرعوا يتلمسون العيوب للإسلام ويفترون الأكاذيب ليشفوا صدورهم.

قالوا: إن القرآن مأخوذ من الكتاب المقدس! وقال أُولو الألباب كيف يؤخذ التوحيد من التثليث؟ والتنزيه من التجسد؟

وقالوا: الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني! وقال أولو الألباب: إن تشريعا يحث على إنظار المعسر والتجاوز عن الدين لا يؤخذ من تشريع يقضي باسترقاق المعسر وقد يأمر بقتله! وشتان بين المسئولية في الإسلام والمسئولية عند الرومان..

ذاك من ناحية الكيف أما من ناحية المساحة الاجتماعية فالقول بأن الفقه الإسلامي مستمد من الفقه الرومي كالقول بأن نهر النيل ينبع من بئر حفرها جندي روماني في بلاد النوبة ليستقي منها هو وجواده.

إن البواعث على إهانة الإسلام وتصغير رسالته وتحقير أمته وإنكار ما تركته في الدنيا من دويّ، وما خلفته في العالم من رقيّ لاسند لها إلا كره أعمى.

قال الأستاذ رجاء جارودي : في رده على الاتهامات السابقة التي ألمحنا إليها : قبل كل شيء ننفي الزعم بأن الفكر الإسلامي ، مجرد مترجم، أو ناقل عن الفكر اليوناني، إن هذا قول لا أساس له من الصحة:

أ ـ فالرياضيات اليونانية تعتمد على مفهوم النهائي في حين أن الرياضيات العربية تعتمد على مفهوم اللانهائي.

ب ـ كان المنطق اليوناني نظريا في حين أن العلم العربي تجريبيٌ أساسا.

جـ ـ كانت الهندسة المعمارية اليونانية «استاتيكية» تعتمد على الخط المستقيم أما هندسة المساجد فإنها على عكس المعبد اليوناني «سمفونية» من المنحنيات بأقواسها وقبابها.

د ـ كانت الفلسفة اليونانية من «برمنيدس» إلى «ارسطو» فلسفة وجود، أما الفلسفة العربية فهي فلسفة الوجود والفعل، ثم هي تعتمد أصلا على نبوة أي على الوحي فلها مصدر علمي آخر غير المصادر المادية للمعرفة التي لا يعرف اليونانيون غيرها.

هـ ـ المأساة اليونيانية ـ بما فيها من شذوذ وعُقَد ـ لا يمكن تصورها في النظرة الإسلامية للحياة، بل إن الأدب العربي يستنكر التصور اليوناني للحياة كماً وكيفا.

ليس صحيحا أن العلم العربي علم بدائي اذا قيس بالعلم المعاصر. إن العلم العربي على عكس مفهومنا الوضعي لا يفصل بين العلم والحكمة أي أنه لا يُغفل أبدا المعنى والغاية!

إن القرآن ترك آثاراً عميقة في الفكر الإنساني تجعل المؤمن يرى آيات الله في كل شيء، تجعله يبصر أمجاد الألوهية في آفاق الكون، والسنن العامة التي تحكمه، ومن ثم فهو يحتبس عند الظواهر الملحوظة، بل يرى في كل شيء «إشارة ورمزاً» يعني إلى ربه بداهة!!

فآيات الله في صحائف الكون تتلاقى مع آيات الله في صحائف الوحي تلاقيا يجعل النظرة إلى الكون أسمى، وهذا العقل المؤمن لا يعجز عن تحليل الروابط التي تصل الأشياء بعضها ببعض، والتي تقود إلى القوانين العلمية الشائعة في الوجود، وإنما يمتاز العلم المتديِّن بأنه يضفي على هذه القوانين معنى أشرف.

ومن ثم يقول رجاء جارودي: إنها قوانين دنيوية، بالنظر إلى العلاقات التي تسودها! بيد أنها دينية رفيعة القدر عندما نلحظ صلتها بالخالق..

إن الغرب نسي الجانب الإلهي في دراسته للكون والحياة. فماذا كسب من مبدأ «العلم للعلم»؟ لا شيء! أمسى التطور الكميُّ للعلم والحضارة الصناعية هدفاً مقصوراً لذاته. يوشك أن يتحول إلى بلاء على أصحابه. والخاسر في هذا العلم المتمرد هو الإنسان في كل مكان!

ويمضي المحاضر العظيم فيقول: «إن نهضة الغرب لم تبدأ في إيطاليا مع إحياء الثقافة اليونانية الرومانية! بل بدأت في أسبانيا مع إشعاع العلوم والثقافة العربية الإسلامية! لكن هذه النهضة الغربية لم تأخذ من العلوم العربية الإسلامية سوى منهجها التجريبي و«تقنياتها» وتركت جانبا الإيمان الذي يوجهها نحو الله ويسخرها لخدمة البشر...!

ونقتطف هذا الجزء من محاضرة جارودي ـ ولما نقتبس ثلثها ـ لنسمع هذه العبارات: «إننا نشهد اليوم ما كنا نشهده على عهد النبوّة. فعندما بدأ الرسول دعوته، كانت هناك دولتان عظيمتان، نال منهما التدهور. تتجابهان في عداوة حادة. هما الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الساسانية. واليوم نشهد دولتين كبيرتين تتنازعان على تقسيم العالم. وتمثل كل منهما مذهبا يخيل إلينا أنه يعارض الآخر! والحقيقة أنهما نتاج واحد للفلسفة المادية الفرعونية المستكبرة. وأنهما يؤديان إلى ذات الطريق المسدود، ومنتهيان حتما إلى افلاس البشرية.

ويقول: في هذه الظروف المتميزة بأزمة الغايات أو بانعدام هدف دبني ناضج يربط الإنسانية بالله على نحو مكتمل. يمكن للإسلام أن يقدم للعالم الشيء الذي يفتقر اليه، ويكاد يهلك، لأنه لا يجده، يمكن للإسلام أن يقدم التوحيد، يقدم للحياة معناها النضير، يقدم النور والجمال لعالم يوشك أن يحتويه ليل مظلم بالغ الدمامة..

ثم يقول جارودي للمسلمين: إن الوفاء للأجداد لا يتمثل في الحفاظ على رفاتهم، ولكنه في العمل على تبليغ الشعلة...!!!

وذهب الرجل ليلقى علماء الخليج ـ وكنت يومئذ في دولة قطر ـ وتتبعت أنباءه، وهو بين حل وترحال، وسمعت أحد الناس يقول: انهم وصفوه بأنه صوفيّ مبتدع...! [مساكين لا يدرون شيئا..!!]

وولّى الرجل وجهه شطر القاهرة! وقلت في نفسي: لن يلقى هناك محمد عبده، لن يلقى هناك حسن البنا، من سيلقى الرجل هناك؟ بقايا سدنة «مجمع الأديان» الذي أوعزت به الصليبية العالمية ثم دفن في وادي الراحة بأرض سيناء؟

وأصدر غلام شيوعي كتابا عن ردّة «جارودي» فقلت: التقى الدهاةُ من الكفار بالأغبياء من المؤمنين على مهاجمة رجل عظيم...

إن مأساة العلم الديني لا بد من شرحها ، فالقدر المطلوب لتكوين عقل مؤمن وضمير طهور من مواريثنا التقليدية لم نحسن تحديده بل لم نحاول تحديده...

والاستبحار في المعرفة الدينية هو عند الكثيرين استكثار من عملة فقدت قيمتها، لأنه حوار مع الموتى مضت عليه قرون!!

العلم المغشوش يهز الأمة ويخدم الاستعمار

الصحوة الإسلامية المعاصرة مهددة من أعداء كثيرين، والغريب أن أخطر خصومها نوع من الفكر الديني يلبس ثوب السلفية، وهو أبعد الناس عن السلف[34]. إنها ادّعاء السلفية وليست السلفية الصحيحة!!

إن حب السلف دين وكرههم نفاق! إنهم دعائم حضارتنا، ومعالم رسالتنا، من أجل ذلك يجب أن نحسن التأسي بهم، وأن ندفع عنهم كل مَا يؤذي سمعتهم!

كنت يوما أتحدث في موضوع غير ذي بال، وفي المجلس رجل موصوف بالسلفية، وجرت على لساني كلمة موهمة لم أقصد إلى شيء بها! وتلفتُّ فإذا الرجل يحسب في نفسه مسار فكري، ويقدر أني سأتورط في كذا وكذا، وكشّر عن أنيابه واستعد للفتك!! غير أن الحديث انعرج إلى ناحية أخرى، وشعرت بأن الرجل آسف لأني أفلتُّ منه.

---

(34) السلفية تعني العودة إلى عقيدة السلف وأخلاقهم السمحة الكريمة، وليست الدعوة بواسطة التصيّد والحقد!!

قلت له: فلان! قال: ما تريد؟ قلت: رأيتك متحفزا للنزال، ثم كفى الله المؤمنين القتال... قال: نعم، حسبتك ستقول ما لا أوافق عليه...

قلت: إنكم تتربصون بالخطأ، لتأكلوا صاحبه، فإذافاتكم شعرتم بالحزن، ليست هذه يا صاحبي خلائق المؤمنين! إنكم تجمعون جملة من صفات العناد والتحدي والحقد وتلمُّس العيب للبرآء، وهذا كلهُ مرفوض في ديننا...

قال: نحن ننافح عن السنن ونحارب المحدثات والناس تأبى إلا الابتداع. وما يرموننا به باطل...

قلت: ليت الأمر يكون كذلك، إنكم تهاجمون المذاهب الفقهية، وتخدشون أقدار الأئمة، وتتركون انقسامات عميقة بين الناس باسم السلفية، والعلم الصحيح لا يأخذ هذا المنهج..

قال: نحن نرفض التقليد المذهبي، ونعلّم الناس الأخذ المباشر من الكتاب والسنة أتأبى أنت ذلك؟

قلت: لا يأبى مسلم الارتباط بكتاب ربه وسنة نبيه،وتصوركم أن الفقه المذهبي يستقى من نبع آخر غير الكتاب والسنة غير صحيح.. ومن الممكن للعلماء الراسخين أن يناقشوا بعض القضايا ، ويتعرفوا ما جاء فيها من آثار، ويستنبطوا ما يطمئنون إليه من أحكام، وذلك كله في إطار من الإخاء والحب وإيثار الحق على الخلق..

والفقهاء الأربعة الكبار، نماذج رفيعة لاحترام الكتاب والسنة، ولا يلام مسلم تبع واحدا منهم، كما لا تلامون أنتم في اتباع الشوكاني أو الألباني أو السيد سابق أو الصنعاني... الخ.

قال: ذاك ما نقول! قلت له: لا، إنكم ترون رأيكم ــ الذي تابعتم فيه أخذ الناس ــ هو الحق وحده، ثم تشنون هجوما على من خالفه بوصفه خارجا على السنة!! كأن السنة وقف عليكم أنتم لا غير!

أحب أن تعلموا أن الاجتهاد الفقهيّ خطأه وصوابه مأجور، وأن الأمر لا يتحمل عداوة وفرقة! ولو سلمنا أن ما لديكم هو الصواب، فمخالفكم ما حُرِمَ ثواب الله! فلماذا تريدون إحراجه، وإخراجه من دائرة السلف، لتبقى حكراً عليكم؟

الرأي عندي أن المأساة (خُلُقية)، لا علمية، وأولى بكم أن تتواضعوا لله. وتصلحوا نيتكم معه، وتتطامنوا لإخوانكم المؤمنين، وتحسنوا الظن بهم..

إذا اقتنعتم برأي فمن حق غيركم أن يقتنع بضدِّه، ولا مكان لحرب، ولا ضرب، والخلاف الفقهي لا حرج منه، أما الإثم ففي التعصب المذهبيّ الضيق! والعالم الإسلاميّ رحب، والمذهب الذي يضيق به قطر يتسع له آخر، والذي ينبو عنه عصر تتسع له عصور أخرى..

إن زعيم السلفية الأسبق في مصر الشيخ حامد الفقي حلف بالله أن أبا حنيفة كافر، ولا يزال رجال ممن سمعوا اليمين الفاجرة أحياء، وقد ندَّدت أنا في كتاب لي بمحاضرة أُلْقِيَتْ في حي الزيتون بالقاهرة تحت عنوان «أبو حامد الغزالي الكافر» والمكان الذي قيلت في هو مقر السلفية!! والطلبة السلفيون هنا ــ في جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر ــ يقولون عن مالك بن أنس: إنه يفضل عمل أهل المدينة على حديث رسول الله، قلت لهم: هذا كذب، إن مالكا رضي الله عنه يرى عمل أهل المدينة أدل على سنة رسول الله من حديث واحد قد يحفظ أو ينسى، قد يخطئ أو يصيب!!.

هذا التفكير المريض المتحامل لا نتيجة له؛ إلا تمزُّق الأمة المثخنة بالجراح، والزعم بأنه سلفي لون من الدجل والجراءة..

وقد لاحظت ثلاث ثمار مرة لهذا العلم المغشوش، الأولى أن بعض الطلاب الذين لا يحسنون إعراب جملة يقولون عن الأئمة المتبوعين: هم رجال ونحن رجال! قلت: إن الشعب الإنكليزي لا يتناول رئيسته «تاتشر» بهذا الأسلوب السمج! ليت شعري أين هذا السلوك من قول رسولنا ﷺ «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»!!

الثانية أن نفراً من العمال والفلاحين فرّطوا في أعمالهم الحرفية، أو الفنية، مكتفين في إثبات تدينهم بثوب قصير، ولحية مشوشة، وحمل عصا حينا، أو ارتداء عمامة ذات ذنب عندما تكون «المشيخة» قد ثبتت لصاحبها..!

أما الملاحظة الثالثة، وخطرها شديد فإن عملاء روسيا وأمريكا أيقاظ في محاربة الإسلام، مهرة في إطفاء صحوته الجديدة! وهم يجتهدون في إبراز الجماعات المتطرفة والتغاضي عن نشاطها لأنها وجه دميم للإسلام ودعاية حقيقية ضده، وهدم للوحدة، وتسجيل للفرقة!

من أجل ذلك يحاربون الفكر المعتدل، أو الإسلام الصحيح، ويطاردون أتباعه، على حين يترك هؤلاء الغلاة يثيرون الشبه، ويشعلون حروبا داخلية تقضي على الإسلام ومستقبله.. وذاك سر انتشارهم في آسيا وإفريقية!

إنهم لو نجحوا ــ قضوا على الإسلام في مهده بقصورهم العقلي، فليتركوا لتحقيق ذلك!!

ونتجاوز حكاية فقه الفروع إلى حكاية أخرى أدهى! كنت أقرر أن أحاديث الآحاد يعمل بها في الأحكام الشرعية القائمة على العلم الظني أو الظن الراجح.. فسأل طالب: هل ينبني على الظن عمل؟ قلت: تدبَّرْ قوله تعالى ﴿**فَإِن**

طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدودَ اللهِ[35].

إن أحوال الناس ومسالكهم تنبني غالبا على ما يترجح لديهم من أحكام، وأحاديث الآحاد ثبت في الدماء والأموال،والأعراض على هذا الأساس...

أما أصول الاعتقاد، وأركان الإيمان فتُستمدّ من نَصٍّ قطعي الدلالة، قطعي الثبوت، وهذا ما عليه جمهور الأئمة.. قال الطالب: وهو سلفي كما ظهر لي ـ حديث الآحاد مصدر للاعتقاد!

قلت ـ محاولا الاختصارْ ـ ليس في ديننا عقائد تقوم على حديث آحاد! عقائدنا كلها ثابتة بأدلة قاطعة، ولا داعي للجدال! قال الطالب: عقيدة القدم ثبتتْ بحديث آحاد! فردَّدْتُ كلمة الطالب بضيق شديد، وغاظني منه أن يستأنف كلامه قائلا: وفي رواية أخرى ذكرت كلمة رِجْلٍ بدل كلمة قدم.

قلت: تعنون أن نثبت أن لله رجلا؟ ونعدّ ذلك من عقائد الإسلام التي نلزم الناس بها؟ قال: نعم، وذاك رأي سلف الأمة..!

قلت: ما أجرأكم على الافتراء! إن سلف الأمة ما تدري شيئا عن هذه الرجل، ولا سُمِعَ داعٍ إلى الإسلام يكلِّف الناس أن يؤمنوا بها..

أصل القصة وتفصيلها ذكره القرطبي على نحو واضح سليم.. قال في صحيح مسلم والبخاري والترمذي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال جهنم يُلْقى فيها وتقول: هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قَدَمه فيَنْزَوِي[36] بعضها إلى بعض وتقول قَطْ قَطْ بعزتك وكرمك،ولا يزال في الجنة

---

(35) سورة البقرة 230.

(36) ينزوي بعضها إلى بعض: على من فيها، وتشتغل بعذابهم، وتكف عن سؤال هل من مزيد.

فَضلٌ حتى يُنشئَ الله لها خلقا فيسكنَهُم فَضْلَ الجنة» لفظ مسلم. وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة: «وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رِجْله يقول لها قَطْ قَطْ فهنالك تمتلئ وينْزَوي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا،وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً». قال علماؤنا رحمهم الله: أما معنى القَدم هنا فهم قوم يُقدِّمهم الله إلى النار، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار. وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال: رأيت رِجْلا من الناس ورِجْلا من جَرَاد.

قال الشاعر:

فمرَّ بنا رِجْلٌ من الناس وانْزَوَى	إليهم من الحيِّ اليمانيـنَ أَرْجُلُ
قبـائلُ من لَخْمٍ وَعُكْلٍ وحِمْيَرٍ	على ٱبْنَـيْ نِزارٍ بالعَدَاوةِ أَحْفَلُ

ويبين هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنه قال: ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مِقمَع ولا تابوت إلا وعليه اسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف اسمه وصفته، فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة: قَطْ قَطْ حسْبُنا! أي اكتفينا اكتفينا، وحينئذ تنزوي جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر. فعبّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم؛ ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث: «ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة».وقد زاد (القرطبي) هذا المعنى بيانا في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله. وقال النضر بن شُمَيل في معنى قوله عليه السلام: «حتى يضَعَ الجبار فيها قَدمَه» أي من سبق في علمه أنه من أهل النار.

فأين القدم التي يُمشي عليها في هذا السياق المبين؟ إن العقائد لا تخترع ولا تُفتعل على هذا النحو المضحك! عقيدة رِجْلٍ لله(!!) ما هذا؟

قلت: إن أركان الإيمان تؤخذ من نص قطعيٍّ الثبوت أي متواتر، قطعي الدلالة أي لا يحتمل معنى آخر..

وإذا كان الأحناف يرون أن خبر الواحد لا يثبت فريضة في الفروع العملية؛ لأن الفرض عندهم يثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه، فكيف نتصور نحن إثباته لِعقيدة يكفر منكرها؟

ولكن الطالب السلفي قال: إن القرطبي أشعريّ المذهب وإنه أحد المفسرين الجانحين إلى التأويل، وإنه يشبه الرازي والغزالي، وإنهم جميعا مبتدعة لا يؤخذ الإسلام منهم...

وعلمت أن الغلام مملوء بالجهالة، وأنه ـ مثل غيره من أدعياء السلفية ـ لا تصلح الأرض معهم ولا بهم...

الطريق لحل الخلاف في قضية التأويل :

وهنا أجدني مسوقا الى الكلام عن التأويل، وتبيان الموقف الصحيح منه...

إن العقل الإنساني في عصرنا هذا عرف قدْره، وعرف أين يمتدّ وأين ينكمش؟ ففي بحوث المادة انطلق لا يلوي على شيء! أما في ما وراء المادة، فقد تراجع وأعلن أن هذا ليس ميدانه...

والعقل الإسلامي عرف هذه الحقيقة لكن بعد ما داخ وكاد يهلك! والذين اشتغلوا بالتأويل عندنا سبحوا طويلا في البحر ثم لما أحسّوا الغرق عرّجوا على أقرب شاطئ فنجوا بأنفسهم..!

وقد تأملت مليا في مواقف رجالنا قديما، فما شعرت في قلب أحدهم بسوء، ولا رأيت أن أحدهم يخطر بباله النيل من أمجاد الألوهية، أو الحطّ من عظمتها! إن جمهرتهم ـ في خشوع وأدب ـ تشترك مع الكون المسبح بحمد ربه، وتشترك مع الركّع السجود في التوبة والخضوع.

ربما أسفّ المعتزلة في بعض عباراتهم، وربما خدعهم الإعجاب بفكر اليونان حينا، وأيّا ما كان أمرهم فإن العقلاء أدانوهم في تأليبهم السلطة على أحمد بن حنبل، وكان ذلك طاويا لرايتهم إلى الأبد، فانتهوا بخيرهم وشرهم...

أما الأشاعرة فتنزيههم لله واضح، وثناؤهم عليه جميل، وقد اقتصدوا في التأويل، وسلكوا مسلكا وسطا جعل جماهير المسلمين تنضمُّ إليهم من ألف سنة إلى اليوم.

ولك أن تقول: ما قيمة هذا الاقتصاد، ونحن منهيون عن التأويل جملة وتفصيلا؟

ونجيب: إن المتكلمين من سلف وخلف اضطروا إلى التأويل في بعض جمل من الكتاب الكريم ـ والسنة كذلك ـ توفيقا بينها وبين الآيات الأخرى، وتمشيا مع حكم العقل في إثبات الكمال كله لله تبارك اسمه، ونفي أي إيهام بما لا يليق!

تدبر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[37] لقد قال المفسرون: المعية هنا معية صفات، لا معية ذات، فهو معنا بعلمه وسمعه وبصره وقدرته وحكمته ورحمته.. الخ، أما معية الذات فتقتضي الحلول وهو باطل...

---

(37) سورة الحديد 4.

وعلى ضوء هذا فسروا قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.[38] وقوله أيضا ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لاَ تُبْصِرُونَ...[39] قالوا: نحن أي ملائكتنا...!

فإذا استحق الأشعري لوما، لأنه أول ايات ومرويات ابتغاء تنزيه الله تبارك وتعالى فغيره كذلك ملوم ولا معنى لنهش الرجل وحده بالأسلوب المسعور الذي نراه الآن!!

هل يعني ذلك أننا مع الأشعريّ في منهجه؟ الحق أني مع السلف الأول من صحابة رسول الله، ومع دولة الخلافة الراشدة، التي لم تفتح بابا لهذه البحوث!

وأنظر إلى ابن تيمية والأشعري على أنهما سواء في الإيمان الصحيح، والغيرة على الإسلام.

وما يأخذه الكاشحون على أبي الحسن، يؤخذ مثله على ابن تيمية عندما يتوقف في نفي الجسمية عن الله فلا يثبت ولا ينفي، وهذا خطأ، وكان ينبغي أن يلتزم بقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.[40] فيجزم بالنفي! كما يؤخذ عليه أيضا نفيه للمجاز في القرآن وفي اللغة العربية كلها. إن علماء اللغة وأدباءها وشعراءها يبتسمون من هذا النفي الغريب.

ولكن هذه الهنات لا تنال من قدر إمام شامخ كبير العقل راسخ اليقين شديد البلاء، في نصرة الإسلام، وردّ أعدائه..

---

(38) سورة ق 16.

(39) سورة الواقعة 83، 84، 85.

(40) سورة الشورى 11.

وواجبنا في هذا العصر ألا نجدِّد العراك بين الموتى، وألا نَجْتَرّ الخلافات القديمة[41]، لنقطع بها أرحام المؤمنين في هذه الأيام النحسات التي أحدق فيها أعداء الإسلام حول داره، يريدون هدمها...

إذا كان المثل يقول «لا تجعل سحب الغد تغطي شمس اليوم» فأولى بنا أن نقول: «لا تجعل غيوم الماضي تغطي شمس الحاضر»!!

ماذا يكسبه السلفيون من شتم الأشعري والرازي والغزالي والقرطبي وبقية علماء المسلمين؟؟ طول عشرة قرون!! أليس الأولى بهم أن يدركوا شؤم الخلاف ويجنبوا الأمة بلاءه الآن..؟

كنا في الجامع الأزهر ونحن طلاب صغار نعرض رأيي السلف والخلف، وندرس مواقف الجانبين، دون حساسيات، وقد ألفت كتابي «عقيدة المسلم» مؤثرا مذهب السلف لاقتناعي بعجز العقل البشري عن اكتناه الغيبيات...

بيد أني ما فكرت في تأليف فرقة لشتم الأشعري وسائر الخلف، وشغل المسلمين بمحاربة الموتى، وإلقاء محاضرة في تكفير الغزالي باسم السلف!!

إن أبا حامد غفر الله له مُوَلَّهُ القلب بحبٍّ الله، حارُّ الكلمات في مدحه وحمده، واقتياد الناس إليه، وتحبيب ذكره إلى نفوسهم!

وما يحكم بكفره مسلم! فكيف يفعل ذلك منتسب إلى السلف؟

وأعود إلى قضية التأويل لأسجل بعض مشاعر نفسية وعقلية مرت بخاطري.

لقد كتبت قبل ذلك أن اللغات من وضع البشر يعبِّرون بها عما ألفوا من أشخاص وأشياء وأفكار في عالمهم المأنوس لهم، وأن هذه اللغات أعجز عن

---

(41) هذا هو الهدف من الرأي الذي أثبته، مع أني ـ كما ذكرت ـ على عقيدة السلف الصالح والحمد لله.

تصوير أمجاد الألوهية. وآفاق الكمال الأعلى، وأن الوحي الإلهي عندما يخاطب الناس فهو يُقرِّب إليهم بألفاظهم ما يناسب أفهامهم...

كنت ذات يوم جالسا مستغرقا في تفكير عميق. فلمحت ذبابة تطير قريبا مني! فتساءلت: أتعرف هذه الذبابة ما يدور برأسي؟ بداهة لا! إنها دون ذلك كثيرا كثيراً كثيراً! قلت: إن عباقرة الجنس البشري، لو تسلسل تفكيرهم يمدّ بعضه بعضا ليعرفوا طرفا من حقيقة الذات العليا، لكانوا أعجز من هذه الذبابة... شأن الألوهية أجلّ وأسنى!!

وتساءلت: كم أشغل أنا من مساحة أو من حيّز على ظهر الأرض؟ أشبار معدو دات في عدة أشبار! وتضاءلت في نفسي شيئا ما، ثم ازداد تضاؤلي وأنا أقول: إن الأرض كلها تأخذ من مساحة الكون الكبير أقل من الحيّز الذي آخذه أنا منها! إنها داخل الملكوت الفخم تشبه الهباءة التي ترتعش في شعاع من الشمس اخترق النافذة إلي.

لو فنيت هذه الأرض بمن فيها وما فيها، ما نقص الكون شيئا طائلا، ولو فنى الكون كله ما ضار المجدَ الإلهي شيئا!

وتسلل إلى قلبي إحساس بالرهبة، وأنا أتدبر قول ذي الجبروت والعظمة ــ مهدداً من أشركوا به ــ **﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ المَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾**[42]؟ لا أحد! إن الملائكة والمرسلين ومَنْ دونهم فقراء إلى الله، وهو غني عن العالمين..

وتذكرت أني أتنفس بلا تفكير! نعم كم شهيقا وكم زفيرا في كل دقيقة؟ عشرات المرات! والعمر مربوط بهذه الأنفاس، فلو توقفتْ فاضت الروح!

(42) سورة المائدة 17.

خمسة مليارات من البشر يتنفسون، وأضعاف أضعاف هؤلاء من الطيور، والزواحف، والدواب الهائمة والسائمة والعائمة.

من يهيئ لأولئك كلهم الهواء الصالح لهم؟ قال العلم: يحتاج الأحياء إلى الأوكسيجين، ويحتاج النبات إلى الكربون، ويتم تبادل بين النوعين ليأخذ كلاهما ما يُبقيه!

ترى كيف يتم هذا التبادل؟ وأين؟ وكيف يتبع العلم الإلهي مسار كل زفير وشهيق في هذا الجو الرحب، ليبلغ مداه، ويتم دورته، ويحقق نتيجته؟؟؟

إننا معشر الإنس والجن ـ لا نعرف إلا القليل عن عالمنا، فكيف يدرك عالَم الغيب من يجهل عالم الشهادة؟ وكيف يحاول الغرور البشريّ اكتشاف الذات، أو الصفات العليا؟

أحسب أن البطالة النفسية، والتطاول الرديء من وراء الترف العقلي في علم الكلام.

جماعة يوغلون في التنزيه إلى حد التجريد، وآخرون يبلغون في الإثبات إلى حد التجسيد، والقرآن الكريم بعيد عن المسلكين، ونحن لا نقبل إلا منهاجه، ولا نأخذ عقائدنا إلا من توجيهه الحق، ننطلق أو نتوقف وفق ما يريد.

واللطيف أن العلم بعد ارتقائه المعاصر، يهدي إلى الله بالأسلوب القرآني، لا بالفكر السطحي، ولا بالتعمق التائه، وقد تدبرت كتابات علماء الكون والحياة فوجدتهم استدلوا بالملكوت على صاحبه، وعنت وجوههم أمام عظمته، ثم استيقنوا بعد ذلك من عجزهم عن اكتناه ذاته، فتوقفوا مبهورين، ولو وُضعت تجاه أعينهم آيات القرآن الكريم لقالوا: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[43] هذا ما نريد أن نقول، ولكننا لا نعرف.

---

(43) سورة الكهف 64.

وتعابيرهم تدل على وحدة الشهود لا وحدة الوجود! فهم عالمون بأن المخلوق غير الخالق، وأن العالم غيرُ مبدعه، غير أنهم يهتفون باسم الله عندما تبرق أمام أعينهم آياته، وتتكشف الأسرار عن حكمته وقدرته! وهذا الهتاف عودة إلى الخالق، الذي نطقت صناعته بجلالته.

قلت لنفسي يوما: ما أثقل هذه الأرض! ما أثقل جبالها وبحارها المحيطة وغير المحيطة، وصحاريها وبراريها... مَن يحملها في هذا الفضاء، ويديرها أمام أمها الشمس؟ بل من يحمل الشمس نفسها ـ وهي عضو في مجرّة هائلة ـ بين ألفي ألف مجرة تسبح في جو السماء؟ وهمست شفتاي بالجواب: من؟ إلا الله! ثم قلت: ذاك الخاطر بعض ما جاء في السنة الشريفة: «سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه وزنة عرشه، ومداد كلماته»!!

ورجال العلم الحديث بعداء عن الجدل الفلسفي، والشقشقة اللفظية، فإذا نظر أحدهم إلى سنبلة قمح، أو كوز ذرة، فقال: الله! فلا يعني إلا الإشارة بقدرة استخرجت من الطين هذا الحب المتراصّ النضيد، وأبرزته سطورا سطورا كأنه قصيدة رائقة..

إنه المعنى السهل الذي لخصه الشاعر العربي بقوله:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد...!

وقد رأيت الإحساس بالله سيطر على بعض الكاتبين والعالمين والمتصوفين، فجاءت عباراتهم تدل على الله، أكثر مما تدل على العالم، وسر هذا الاستغراق الحسيّ أن الله هو وحده مصدر الإيجاد والإمداد، وأن وجود الأحياء عاريّة ممنوحة لهم من الحي القيوم، وإلا فليس لهم من ذواتهم إلا العدم، وإذا كان في الأرض والسماء ما يعجب أو يروع، فالفضل لذي الجلال والإكرام لا غير،

أجل، فما يكون هذا الغير؟ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[44].

ذاك سرّ الصرخات المنكرة، التي أرسلها ابن عطاء الله السكندريّ في وجه أناس لا يرون الله! منهم ملاحدة ينكرون ويطلبون الدليل على وجوده! ومنهم أهل دين لا يحسون أنه منهم قريب مع أن منه دقات قلوبهم ولمحات عيونهم يقول ابن عطاء الله:

كيف يتصور أن يحجبه شيء؟ وهو الذي أظهر كل شيء...
كيف يتصور أن يحجبه شيء؟ وهو الذي ظهر بكل شيء[45]
كيف يتصور أن يحجبه شيء؟ وهو الذي ظهر في كل شيء[46]
كيف يتصور أن يحجبه شيء؟ وهو الظاهر قبل وجود كل شيء
كيف يتصور أن يحجبه شيء؟ وهو أظهر من كل شيء ...
كيف يتصور أن يحجبه شيء؟ وهو الواحد الذي ليس معه شيء[47]
كيف يتصور أن يحجبه شيء؟ وهو أقرب إليك من كل شيء..
كيف يتصور أن يحجبه شيء؟ ولولاه ما كان وجود شيء..

شتان بين من يستدل به، وبين من يستدل عليه! المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله! والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يُستدل عليه؟، ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟

---

(44) سورة الحديد 3.

(45)، (46) آياته ودلائل جلاله وجماله هي التي ترى وتدل عليه.

(47) الوجود واحد وإن كانت الموجودات كثيرة، فالأشياء لا تقوم إلا بربها ولا وجود لها إلا منه ذلك، ونلفت النظر إلى ما قررناه آنفا عن وحدة الشهود..

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تشد أولي الألباب إلى من له الخلق والأمر، وتزجرهم عن الاحتباس في المادة الهامدة ونسيان من أبرزها من العدم إلى حين «كل شيء هالك إلا وجهه»...

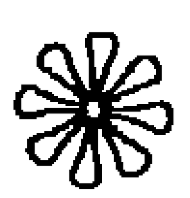
في فجر النهضة العلمية الحديثة في بلادنا ألف الشيخ محمد عبده «رسالة التوحيد» اجتهد الرجل فيها أن يعرض علم العقيدة في ثوب جديد، فابتعد عن الجدل، وأبى أن يلمز واحدا من المتكلمين، وعدَّهم جميعا إخوة يبحثون عن الحق، ثم شرح القضايا الأصيلة في ديننا شرحاً حسنا، وقدم لها خلاصات نقية..

وتألفت بعد «رسالة التوحيد» كتب في العقيدة بَنَتْ ولم تهدم وجمعت ولم تفرق، وتحاشت الماضي الذي قسمنا في المجال الثقافي والسياسي فرقا يشقى بها المؤمنون ويسعد بها الكافرون، وأسهمت أنا في هذا الميدان بكتابي عقيدة المسلم الذي ألفته من 35 سنة تقريبا، وأرجو أن ينفع الله به.

لكن هواة الشقاق يأبون إلا استحياء الخلاف، وما أغنانا عنه!

إن ثقافتنا الإسلامية كلها عندما تعرض الآن ينبغي أن تغربل بدقة، حتى يتساقط التافه في صمت، ويبقى ما ينفع الناس... ونحمد الله أن بقي كتابه محفوظا، وأن بقيت السنة محروسة بالعلماء الثقات والفقهاء الأمناء.

وننصح إخواننا العاملين تحت راية «السلفية» أن يَقْدُرُوا شرف هذه الراية، وألا يقبلوا الأمور لأمة تريد النهوض، وأن يتركوا قصة التكفير والتفسيق لعباد الله، فإنهم يهدمون أنفسهم قبل أن يهدموا غيرهم...



حد أدنى لثقافة المسلم..

لو كان الإسلام فلسفة أخلاقية لأمكن أن ينهض به بعض الوعاظ والمربين!

ولو كان نظاما سياسيا فقط، لأمكن أن يقوم به حزب من الأحزاب الراغبة في الحكم!

إنه مجموع الأمرين! والتعريف به والبقاء عليه لا يتم إلا بصياغة علمية شاملة!

بيد أن علم الكلام، وعلوم العقيدة إجمالا لم تحسن هذه الصياغة، أو لم تقدم لها خلاصة نقية! فهناك بحث هل العمل شرط أو شطر في الإيمان؟ أو لا شرط ولا شطر؟ وهناك قول عجيب في أن الإسلام قد ينفك عن الإيمان! وإني لأستغرب كيف يذكر قول بأن الإسلام ـ وهو دين الله ـ يمكن ألا يكون معه إيمان؟

وهناك قضايا حُشِيَتْ بها الأذهان، وهي فضول أو ذيول يجب قطعها... مثل الاستثناء في الإيمان! الحرام رزق! المقتول ميت بأجله! إنها قضايا تافهة، وكان أولى بالعرض الجيد علاقة المسلم بالله كما وصفها القرآن الكريم، فإن هذه

العلاقة تتكوّن من جملة أخلاق يكون الإيمان صفراً بدونها، ولا أدري من يهتم بها إذا لم يهتم بها علماء العقيدة؟ إنها تُركت للأسف للمؤلفين في التصوف على أنها مراحل الطريق، أو للمتحدثين في الوعظ على أنها من مرققات القلوب، ومكانها الأول كما قلنا في علم التوحيد إذ لا دين مع فقدانها...

1 ـ خشية الله

فخشية الله من عناصر الإيمان الأولى، وتدرك ذلك من آيات شتى وثّقت الصلة بين الخوف والإيمان. قال تعالى: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ. إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾[48] فالشعور بالرهبة يغمر الفؤاد من الله وحده!

وقد يتعرض المؤمن في حياته لمخاوف شتى. لكن خوف الناس يتلاشى أمام إجلال الله وإعظام أمره ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[49] ولما طلب من اليهود أن يدينوا دين الحق كان من أول ما كلفوا به ﴿... **وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾[50].

وعندما وعد الله المؤمنين بالنصر على الأعداء، ربط وعده بهذه الرهبة الضابطة بسلوكهم فقال ﴿**لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ**﴾[51]

وبيّن أنه على قدر معرفة الله تكون خشيته ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ. إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾[52].

---

(48) سورة النحل 51.
(49) سورة آل عمران 175.
(50) سورة البقرة 40.
(51) سورة إبراهيم 14.
(52) سورة فاطر 28.

ومع وعد المؤمنين الصالحين بحسن العقبى. أكد أن ذلك لا يتم إلا مع خشية الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾(53).

أين تكون التقوى إذا انتفى الخوف؟ وأين ينبت الضمير الصاحي؟

2 ـ رجاء الله

ونذكر بعد الخوف الرجاء، فإن جمهرة الناس تسيِّرهم مشاعر الرغبة والرهبة. والوعد والوعيد! وقد كان لسيف المعز وذهبه أثرهما في استقرار دولته..

والرجاء في الله له معنى أشرف وأذكى. فإن المرء في هذه الدنيا لا يفلت من غيمة إلا لتحتويه أخرى. ولولا شعاع الرجاء في ظلمه لغاب في الظلام. وهذا الرجاء يومض من الإيمان بالغيب. والثقة فيما عند الله. ومن ثم فإن الماديين لا يعرفونه. لأنهم محجوبون بالأسباب الظاهرة. يستمدون أحكامهم من عالم المحسوسات وحسب.

وقد كان يعقوب مكذبا لمن حوله ضائقا بهم عندما قالوا له ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ. وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(54).

وتحقق رجاء يعقوب بعد لأي، وتلك سنة الله في عباده، ولا بد من الاستكانة لها فهو القائل: ﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾(55)

---

(53) سورة البينة 7 ـ 8

(54) سورة يوسف 85، 86، 87.

(55) سورة الطلاق 3.

والرجاء في الله يحتاج إلى مهاد من الصالحات ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾[56].

ويحتاج الأفراد والجماعات إلى الرجاء والدعاء في جهادهم لأنفسهم وجهادهم للناس. فلا شيء أقتل للنفس من فقدان الأمل. وغلبة القنوط. وانكسار الإرادة.

وفي القرآن والسنة آيات وحكم تجدد الرجاء وتغري بالدعاء، وتهزم الآلام والفتن مهما طال حصارها واستحكمت حلقاتها..

وقد تأملت في قعود القاعدين. واستسلام المقهورين فلم أر له علة إلا عدم الرجاء في الله! وما ضاع الرجاء إلا مع ضياع اليقين..

3، 4 ـ الصبر والشكر .

الصبر والشكر، وهما أركان الإيمان، بعد أن يتحوّل من صورة ذهنية إلى واقع عملي! إننا نحب أن نعيش «متفرجين» ننظر الى ما يعرض لغيرنا في هذه الدنيا، كما ينظر الأطفال إلى برامج «التلفاز» حَسْبهم منها النظر والتسلي.

ودين الله ودنيا الناس ليسا كذلك، إنما اشتباك حقيقي مع السراء والضراء، والخير والشر، اشتباك يجر المرء بعيدا بعيدا عن الشاطئ ليصارع الموج ويواجه الموت، ثم يعود وهو يلهث ما يصدّق أنه عاد...

إن الله أمر موسى أن يذكر بني إسرائيل بتاريخهم مع أعدائهم، وما عانوا من بلاء، وما تم لهم من إنقاذ ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[57].

---

(56) سورة فاطر 29.

(57) سورة إبراهيم 5.

وقصّ علينا سبحانه خبر «سبأ» وتنكرهم لنعمة الله، ثم ذكر ما أنزله بهم من جزاء فقال: ﴿... **فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾[58].

ولست أتحدث عن فضيلتي الصبر والشكر المعتادتين بين الناس؛ إنما أعني صبرا يحس صاحبه أن لله ما أخذ ولله ما أعطى، وأن حق العبودية التحمل دون تململ وضجر، فإذا حُرِم المرء ما يحبّ، أو كلّف ما يكره، نظر الى ربه في تسليم، واستقبل قضاءه دون سخط..

وكذلك إذا طرقت النعماء بابه، لم يطش لها لبُّه. أو يتملكه الغرور فيحسب أنها جاءت إلى صاحبها الجدير بها.. كلا إن اختبار الناس بالسراء أصعب من اختبارهم بالضراء، والساقطون في امتحانات الرخاء أضعاف الساقطين في الميدان الآخر.

قال تعالى: (**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الانْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ انَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ، إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**)[59]. ويلاحظ أن كلمة صبروا في الآية الأخيرة وضعت مكان كلمة آمنوا، فقد اطرد في النظم الالهي أن يقترن الإيمان بالعمل الصالح دائما، وإنما تغير اللفظ فقط، وإلا فكلمة الصبر التي جاءت هنا في اثر الإيمان وامتداده ...

كما يلاحظ أن إبليس لما أعلن تمرُّده على ربه أعلن أنه سيصرف الناس عن شكره فهم يأكلون خيره و يعبدون غيره! وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ**

(58) سورة سبأ 19.

(59) سورة هود 11.

صَدّقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيس ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ[60]

5 ـ توفير الأسباب

المرء يتعلق بما يملك من أسباب ، ويرى ـ بعد وفرتها لديه ـ ان كل شيء يدعو الى الطمأنينة ، وإلى ذلك يشير الشاعر مستهزئا بتهديد خصمه له :

أيوعدني والمشرفي مضاجعي؟ ومسنونة زرق كأنياب أغوال؟

وتوفير الأسباب مطلوب. بل الغفلة عنها جريمة! وقد قال الله سبحانه: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً[61] !

والغريب أن المسلمين طالما غفلوا. وطالما ذهبوا بددا إثر ميلة واحدة من أعدائهم المتربصين!

ومع تنويهنا بقانون السببية. وقيمة العوامل المادية نريد إيضاح حقيقة مقررة في الأرض والسماء هي أن الأمور لا تبلغ تمامها إلا بإذنه تعالى. فما ينقطع مقطوع، ولا يتصل موصول ولا ينبت نبات ولا يحيا حيّ إلا وفق المشيئة العليا.

والإنسان قد يملك أسبابا ولكنه لا يملك الأسباب كلها. ولو ملكها كلها فهو لا يملك الأسباب المضادة لها. بل إن تيار الحياة الذي يمدّ القلب بالنبض. والعقل بالفكر. والأعصاب بالحسّ. ليس ملك الإنسان نفسه. بل ملك واهب الحياة الذي له الخلق والأمر. وبيده النفع والضر. والهزيمة والنصر. والتقديم والتأخير...

---

(60) سورة سبأ 20، 21.

(61) سورة النساء 102.

من أجل ذلك يجب التوكل على الله والركون إليه والاعتقاد أن النتائج المرتقبة لكل سعي مرهونة بمشيئته وحده. وتدبر قول الله لنبيه: **﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا. وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ...﴾**(62)

ويتأكد هذا التوكل في الفترات المُرَّة التي يضعف فيها الحق. وتقل الأسباب المادية معه، وتفحش مع المبطلين. قال تعالى على لسان رسله المُسْتَضْعَفِين: **﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَالَنَا أَلَّا نتوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾**(63).

والتوكل ركن الإيمان في حالي القوة والضعف. فلا القوة ــ مع التوكل ــ تغرّ ولا الضعف يقهر بل يبقى المسلم متزن الأعصاب معتدل الأحكام! عارفا بحدود قوته مع من لا تحدُّ له قدرة. ولا يُغْلَبُ على أمره أبدا...

6 ــ حب الله

وجمهور المسلمين يحسب هذا الحب صفة كمال. أو درجة عليا لبعض العابدين! وهذا غلط شنيع. فإن فقدان هذا الحب فسوق. ويغلب أن ينتهي إلى الكفر البواح...

إن الله يصف المشركين فيقول: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ...﴾**(64) وهذا وصف دقيق! فقد رأينا من الكافرين بالله من

(62) سورة المزمل 8، 9، 10.
(63) سورة إبراهيم 11، 12.
(64) سورة البقرة 165.

يفتدي كفره بدمه وماله. ومن يشمئز إذا ذكرت كلمة التوحيد. ومن يقطّب جبينه إذا رأى مؤمنا ويودّ لو خسفت به الأرض! وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ...﴾[65].

ما الذي يقف هذه المشاعر الحادّة؟ ما الذي يردّ هذا الحب المكين للباطل؟ يقول الله تعالى: ﴿... وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله﴾[66].

إن العواطف الفاترة والأنفاس الباردة لا تحمي حقاً ولا تصون شرفاً لا سيما إذا حشا الباطل جنوده بالأوهام، ودفعهم ببأس شديد إلى اقتحام كل زحام...

لقد وصف الله الرجال الذين يصلحون لدينه بأنهم قوم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[67]!

والواقع أن علم العقيدة عندنا لما اتّسم بالجدل، وأضفت عليه فلسفة يونان الأخذ والرد، والبحث والنظر، تحول إلى علم جاف عقيم، وأمسى قدرة عقل على الاستدلال، لا قدرة قلب على تذوق حلاوة الإيمان، ويجب أن نعود إلى قواعدنا الأولى ...

7 ـ ذكر الله

ربما ابتسم بعض الناس، ونحن نذكر هذا الركن الجليل، وقال: نزعة صوفية: والواقع أن عصرنا هذا أفقر العصور إلى معرفة هذا الركن، إنه يكاد

---

(65) سورة القلم 51.
(66) سورة البقرة 165.
(67) سورة المائدة 54.

يهلك جفافا لنسيان الله، وركضه وراء مآربه.. إن الناس في عصرنا لا يعرفون إلا أنفسهم؛ ولذلك لا يذكرون غيرها!

والإنسان الأوربي ـ قائد هذه الحضارة ـ يصحو من رقاده، وينظر إلى كلبه مبتسما، ويرمي إليه طعامه ثم يذهب إلى عمله باحثا عن طعامه هو، ما رفع عينه إلى السماء! ما حيَّى ربه بكلمة، ما الفرق بينه وبين كلبه؟ لا فرق إلا أنّ هذا حيوان أعجم، وهذا حيوان ناطق، امتاز بعقل أذكى فهو يسخِّر ذكاءه في متعة أكبر وسيادة أظهر.. ثم لا شيء.

وقد يموت بعدئذ حتف أنفه، أو في حرب عدوانية شنها على غيره بطرا ورئاء الناس أو في حرب دفاعية يخوضها لتأمين ضروراته ومرفهاته وحسب!

هذه إنسانية الحضارة الغالبة! ودعك من أديان تعيش في كنفها. ربما تساعدها على شرودها؛ لأنها لا تدري عن الله الحق شيئا.

ذكر الله تجديد أو توكيد لمعرفته الأولى. بعد الإيمان به! ألا ترى التلميذ يقرأ كتابه ثم يعود إلى قراءته مثنى وثلاث ليبقى عارفا بما فيه.

والإنسان في هذه الدنيا محتاج إلى مذكر دائم ليستديم معرفته لربه. وإلا نسي، وطال عليه النسيان فجهل..

وقد يكون الذكر «جهاز صيانة» يصلح ما تعطل ويجدد ما بلي حتى لا تتعطل الوظيفة الأصلية. وَيَفْقد ما لدينا قيمته. وذاك سرّ قوله تعالى ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ**﴾[68] وقوله ﴿**لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾[69]..

---

(68) سورة الحشر 19.

(69) سورة الكهف 28.

ومعنى الذكر المطلوب واضح فهو عملية عقلية روحية تعيد الانتباه. وتجلو الصدأ وتردّ لليقين قوته وأثره! وليس هو ما يتجمع في حلقاته الهمل. لهم بغام منكرا. هذا رقص يحسنه الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا...

8 ـ التوبة

التوبة خلق لا ينفك عنه مؤمن. وقد تحدث علماء الكلام في هذا الموضوع تحت عنوان فاعل الكبيرة! وكان لا بد من الحديث عنه في دين عنوانه الإسلام أي الخضوع لله وتنفيذ أمره!

إلا أن الحديث اصطبغ بطابع الجدل والتراشق بالألفاظ والتهم. فضرّ أكثر مما نفع.

وانقسم المسلمون الأوائل فيه إلى فرق شتى: فهناك الخوارج. وهم بدو لا خبرة لهم بأغوار النفوس وليس لديهم فقه ينسقون به أنواع الأدلة. ولا يدرون شيئا عن آثار الظروف والملابسات في تصرفات الإنسان! وهؤلاء يحكمون بكفر فاعل الكبيرة.

وهناك المعتزلة الذين ذهبوا إلى رأي عُجب. وهو القول بمنزلة بين المنزلتين. فالعاصي عندهم ليس بمؤمن ولا كافر! ليس بكافر لأنه يعرف الله. وليس بمؤمن لأنه عصاه.

وهناك المرجئة: وهم قوم لم يعطوا السلوك كبير قيمة. فالمؤمن لا يفقد إيمانه بترك واجب أو بفعل محرم. ولو بقي على ذلك حتى بلغ أجله. وهو مذهب استرخاء وفوضى وإن شاع للأسف بين العوام...

والجمهور على أن من لم يتب من ذنبه فأمره مفوض إلى ربه ما دام قد مات على التوحيد إلا اذا استباح حراما أو جحد فريضة. فهو بذلك ينسلخ عن الإيمان.

وما نحب أن نضيف هنا جديدا. ولعلنا استوفينا هذا البحث في كتابنا «عقيدة المسلم» غير أننا نرفض الاعتراف بما يقع الآن في العالم الإسلامي من فتن مظلمة.

فهناك أناس انضموا للشيوعية. وانسلخوا فعلا عن الإسلام. وهم ـ ثقافيا وسياسيا ـ مع الشرق الشيوعي.

وهناك أناس تنكروا فعلا لدينهم. وانضموا الى الجبهةالصليبية. يعاونونها على وأد الإسلام وقتل شرائعه..

وهؤلاء وأولئك! إذا هلكوا على تلك الأحوال ماتوا على غير ديننا. ولا يغنيهم شيئا أن يدفنوا في مقابر المسلمين ﴿**فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[70].

تلك الأخلاق الثمانية التي أحصيناها آنفا هي عناصر حقيقية للإيمان وهي ـ بعد معرفة الله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا ـ التي تحدد علاقة المؤمن بربه. ولنترك المباحث التي أضافها البعض الى علم العقيدة فهي أقرب الى اللغو منها الى الجدّ.

وثم أمر يتصل بكيان أمتنا وإن شغلْنا عنه بما هو دونه. وأعني به الأخلاق الزكية! خصوصا الأخلاق التي عدَّ النبيُّ ﷺ تركها نفاقا...

إن أمتنا شغلت نفسها بفروع الفقه وصوره الجزئية أكثر مما شغلت نفسها بالتربية الأخلاقية. وهذا خلل هزَّ بناءها الروحي والاجتماعي، وأوجد أجيالا من المتنطعين لا يحسنون معاشا ولا معادا.

---

(70) سورة التوبة 11.

الحكمة .. والضبط الإجتماعي.

ونتقل الآن إلى جانب آخر من حياتنا الاجتماعية.

لقد وردت كلمة الحكمة في القرآن الكريم عشر مرات. وجاء الأمر بتعليمها مع القرآن نفسه في أربعة مواضع. منها قوله تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾[71].

وظاهر أن تعليم الكتاب والحكمة أحد عناصر ثلاثة هي التي تكوّن رسالة محمد. وغاياتها الرئيسية.

واقتران الحكمة بالكتاب جعل البعض يتوهم أن المراد بها السنة الشريفة.

ودون أي مساس بمكانة السنة نرى أن هذا الفهم بعيد. فللحكمة معنى آخر نأخذه من مواضع الكلمة في السياقات الأخرى...

جاءت كلمة الحكمة في سورة الاسراء بعد هذه التوجيهات: ﴿**لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا. وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ**﴾[72].

وجاءت الكلمة في سورة لقمان: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لله**﴾[73] ثم شرع لقمان يفصل حكمته في وصاياه لابنه مبتدئا بغرس التوحيد. واحترام الأبوين إلى أن قال له ﴿**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ. وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ**

---

(71) سورة البقرة 151.
(72) سورة الإسراء 36، 37، 38.
(73) سورة لقمان 12.

مَرَحاً إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ في مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إنَّ أنْكَرَ الأصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[74].

وجاءت كلمة الحكمة عند استعراض آلاء الله على نبيه داود في سورة (ص) ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إنَّهُ أَوَّابٌ إنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[75].

والحكمة هنا تتوسط عظمة الملك، وعظمة البيان، ويزداد معناها وضوحا عندما نضم إليها ما جاء في سورة البقرة بعد انتصار داود على أعدائه ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[76]

ويظهر أن الحكمة من خصائص النبوات التي تسوس الناس. وتنمّي ملكاتهم النفسية. وتنظم صفوفهم في طاعة الله بشتى التوجيهات. وذلك ما تشير اليه سورة النساء عند تقريع اليهود ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[77] أي أن الحكمة وإن عنت الآداب والسير الرفيعة فهي تعني كذلك الشرائع التي تشدّ أوصال المجتمع وتحرس كيانه.

وقد ذكر الله سبحانه في سورة آل عمران أنه أنعم بالحكمة على عيسى بن مريم ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ﴾[78].

إن هذه الحكمة رحبة الدلالة، ولكنها تضم أول ما تضم التوجيهات والتقاليد التي تتماسك بها الجماعة، كما يتماسك الجسم بجهاز عصبي ذكيّ سريع..

---

(74) سورة لقمان 19.
(75) سورة ص 17، 18، 19، 20.
(76) سورة البقرة 251.
(78) سورة آل عمران 48.

وأحسب أن الحكمة هي المعنى الباطن لكلمة الميزان، وأن الميزان هو الجانب العمليّ لكلمة الحكمة. وقد وردت كلمة الميزان في مواضع من الكتاب العزيز، منها قوله تعالى ﴿**اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَان**...﴾[79] وقوله : ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ والْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[80].

والمعنى الذي لا محيص عنه أن المجتمع لا بد أن يتوازن بالعدل، وأن يترابط بالحكمة، وأنه لا مكان في بناء المجتمعات للعبث والفوضى والجور، وإشباع الجياع إلى العلو والظهور، وإرضاء الراغبين في الاكتناز والتكاثر..

ولا مكان في مجتمع مؤمن لسيادة الجهل، وإقرار الفساد، والحيف على الضعاف إذ لا يسمح بهذا «ميزان» ولا تسمح به «حكمة».

التخطيط الصحيح لبناء الأمة.

إن الله يوصي الجماعة الإسلامية أن تتعاون على البرّ والتقوى، وأن تتواصى بالحق وبالصبر! وكان المفروض في مجتمع حكيم متزن أن تفشو فيه الأجهزة التي تُيسِّر الزواج لتمنع الزنا، والتي تجمع الزكاة لتحارب الفقر، والتي تتعهد الأوقات لتقيم الصلوات، والتي تقيم المدارس لتنشر العلم، والتي تؤسس المطابع لتنشر الكتاب... الخ.

غير أن هذه الأجهزة تكونت تلقائيا في عصور متقطعة، أو تكوّن ما يؤدي رسالتها، ثم بقي الإسلام في «وصاية» الأفراد لأن الحكومات كانت في واد آخر...

---

(79) سورة الشورى 17.

(80) سورة الحديد : 25.

فكيف تتوطد «الحكمة» أو يعتدل «الميزان» في هذا الجو النكد؟

إن الأخلاق كالزرع الذي يحتاج في نمائه ونضجه إلى متابعة ورعاية.

والتقاليد التي تمسك الأمة وتمنع ميزانها أن يجور أو يغش تحتاج هي الأخرى إلى عقل ناقد وضمير حارس!

وقد رأيت الأخلاق والتقاليد عندنا تحيا وحدها، أو تبقى في ضمان أفراد طيبين! أي أن الأمر يخضع للمصادفات العارضة لا للسياسات المرسومة.

وقد نتج عن ذلك ـ مع ما أصاب الإسلام أخيرا من هزائم ـ أن صار الكثيرون يحيون بلا هدف ويتجمعون ويتفرقون بلا رباط ولا وعي... ولا انتماء.

ويستحيل أن يقوم للإسلام مجتمع بعد هذا التفكيك الشائن، بل هذا طريق التلاشي والفناء.

والتخطيط الصحيح لإعادة بناء الأمة (إقامة الميزان) الذي أنزله الله مع كتابه يحق الحق ويبطل الباطل ويحترم تقاليد الشرف ويرسي دعائم الأخلاق..

قال لي صديق: إن فلانا قضى على مستقبله! قلت: كيف؟ قال: ضُبِط في موقف شجاعة!! أما فلان فهو فاشل من زمن طويل لأنه يأبى أن يكون إمعة..!! و..

قلت: أمسك عليك لسانك إن الإيمان الحق لا يصيب احدا بالإفلاس! وما يذهب العرف بين الله والناس.

وإنما تنتحر الأمم بتمردها على الوحي الإلهي، ورفضها تعلُّم حكمته، ونَصْبَ ميزانه.

وأرى إشعار العامة والخاصة بأنهم لا يعرفون الإسلام إذا لم يعرفوا هذه الحقائق..!

إن علوم الدين ليست كلاماً نظريا في العقائد، ولا سردا تافها لأشكال الطاعات، وأحكام الفروع الفقهية!

إذا فسد القلب فسد كل شيء، وإذا انفصل المجتمع عن العقل المؤمن هلك،

وبقي من علم الدين شيء، لا بد للمسلم أن يأخذ نصيبه منه، هو علم الدنيا...!

إنني أفهم أن يدخل الغزاة البيض مجاهل إفريقية، فيسموا أنفسهم معمرين!

لقد وجدوا قوما لا يكادون يفقهون قولا فسرقوا منهم أرضهم، ونفطهم، وذهبهم، وحازوه لأنفسهم! وألهَوْا جمهرتهم بفتات الموائد، وبعض اللُّعبِ التي صنعتها المدنية الحديثة، ولا ننسى أنهم ألهَوْهُم كذلك بصحائف من الكتاب المقدس، على أن يكون ولاؤهم للجنس الغازي..!

لكن لم أفهم، ولن أفهم أبدا، لماذا يدخل الغزاة البيض إلى أرض الإسلام معمرين؟

لماذا ينجحون في إخصاب الأرض الجدبة حيث يفشل مسلم ـ أو بتعبير أصح ـ مدَّعٍ لِلإسلام؟ ولماذا يتضاعف إنتاج الأرض في أيديهم ويقل في أيدينا أو يتجمد؟

لماذا يستخرجون الكنوز من بطن الأرض، ولا نحسن نحن استغلال ما استخفي وما استعلن من ثرواتها؟

إذا كان بعض الناس يقدَّم للمحاكمة على جرائم ارتكابها، فإن هناك أمما يجب أن تحاكم على تفريطها الشائن فيما لديها، خصوصا الأمة التي قال لها ربها ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً...﴾[81].

والإسلام طلب من أتباعه تجويد علوم الدنيا لأمور ثلاثة؛

أولها: أن تعمير الأرض جزء من رسالة الإنسان على ظهرها، جزء من العبادة التي خلق من أجلها، جزء من الكدح الذي يصون به نفسه وأهله وشرفه..

والثاني: أن الله لم يخلق الإنسان ليشقى، ويجوع ويعرى، بل خلقه مكرَّما يحمله ما في البر والبحر، وأحلَّ له الطيبات ،.ويسَّر له الزينة والجمال، بما فوقه من نجوم وبما بين يديه من زرع وضرع..

وقد شرحنا ذلك بإفاضة في أماكن أخرى من كتبنا فلا نزيد هنا شيئا..

لكن الأمر الثالث هو الذي لا نسأم من تكراره، فإنِ الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتم ولا أن ينجح بعيدا عن التفوق المدني والحضاري.

والأمة الإسلامية كي تكون على مستوى دينها، وكي تنجح في المحافظة عليه، وكي تستطيع إفهامه للآخرين، لا بد أن تكون راسخة القدمين في شئون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سباقة في شتى الميادين، مسموعة الكلمة في آفاق العلم براً وبحرا وجوا..

ومن حق الأمم الكبرى ـ وهي أمم تحتقر الأمية العلمية والصناعية ـ أن تنظر الى دعاوي المسلمين وأفكارهم وقيمهم بريبة أو بسخرية ما دام المسلمون نماذج رديئة للتخلُّف الإنساني..

---

(81) سورة البقرة 29.

وفي ظني أن لهذه العلة سببين: أحدهما ثانوي وهو تغلُّب طبائع البدو على تعاليم الإسلام، فإن البدو يكرهون الحرف، ويزدرون الصناع، وينظرون الى الفلاحين نظرة نابية، إنهم يأكلون من كدِّ أيمانهم، ومع ذلك يترفعون عليهم!!

وقد كانوا قديما يشترون السيوف من الهند وما جاورها ليستعينوا بها على الغزو والسطو ولا يكلفون أنفسهم صناعتها، ولا يزال أعداد من الأعراب يرون الحدادة والنجارة مهانة، ويأبون بشمم أن يقوم أحدهم من تحت سيارة يصلحها أو جرار يكشف سبب عطله..

وكنا ندرس ونحن طلاب أن لفظ «آل» لا يضاف إلا إلى الأشراف، فلا يقال: آل الحجام ولا آل الإسكاف!!

ولا ريب أن لهذه البداوة الغبية أثرا ملحوظا في دنيا العرب إلى اليوم.

أما السبب المهم في التخلّف الحضاري فهو شيوع التدين المزيَّف، ووقوع الثقافة الدينية إجمالا بين طوائف من ذوي المعادن الرخيصة أو العقول المعتلّة...

ويغلب على هؤلاء التأثر بالزهد الهندي أو النصراني، والرغبة عن الدنيا، وعصيان نداء الفطرة، والغرام بالمبتداعات، واتهام النزعات العقلية...

وكان العرب على عهد الرسالة يرون أنفسهم أرجح من الروم واليهود عقلا، وأقوى خلقا، وأقدر على أعباء الحياة وخدمة المثل العليا.

وذكر القرآن الكريم رأي العرب في أنفسهم **﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ. لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ. فَكَفَرُوا بِهِ. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾**[82].

---

(82) سورة الصافات 167، 168، 169، 170.

وعلى أية حال فإن العرب كانوا أصلح لنزول الرسالة فيهم، وما كانوا قط أعجز إنسانية من الروم والفرس، ولا كان هذا التخلف السحيق بينهم وبين غيرهم من الناس..

وقد حملوا الإسلام باقتدار، وأحسنوا تبليغه إلى الدولتين الكبيرتين في عهد الخلافة الراشدة، فلما اشتبكوا في قتال مع عدوهم كان تنامي حماسهم وتساند إخائهم مكملا لقلة العدد، ولم يكن السيف دون السيف ولا الخيل دون الخيل..

وجرّب الفرس سلاحا لا تعرفه العرب هو الفيلة ولكن سرعان ما احتال المسلمون على الإيقاع بها ففرت مذعورة ترمي مَنْ فوق ظهرها..

أما اليوم فلا تستطيع الموازنة بين التقدم المدني والعسكري عندنا... وعند غيرنا!!

إن كل علم يطوي مسافة هذا التخلف هو من أركان الدين، وفرائض العبادات العينية والكفائية.

وهو أولى من نوافل العبادة ومسائل الخلاف التي برع فيها الفارغون، واشتغل بها المتنطعون!!



مرتبة أخرى من المعرفة الدينية

ما قررناه في الفصل السابق كان عن النصاب الأدنى للمعرفة الدينية التي يحصلها المسلم العادي، بيد أن الأمة الإسلامية لها شأن آخر! ذلك أنها تحمل رسالة عالمية تشمل الزمان كله والمكان كله...

فالمسلمون مكلفون بهداية الفكر الإنساني، والقلب الإنساني والواقع الإنساني في كل موقع من دنيا الناس! وهل يستطيع ذلك جاهل بقضايا الفكر والقلب والواقع؟

وهل ينجح في ذلك غافل عن سنن الله في الأنفس والآفاق، محجوب عن الأسرار والقوى التي أودعها الله بين يديه ومن خلفه؟

إن عالمية الرسالة تكلف أمتنا كثيرا كثيرا، وقد نهض الصحابة والتابعون بهذا العبء، فكانوا امتدادا لإشعاع النبوة الخاتمة، ثم أخذ الرجال الكبار يقلّون شيئا فشيئا حتى كادت الأمة تصاب بالعقم...

وتعاركت البيوتات العربية على الجاه والمال، والإمارة والوزارة، حتى استخفت حقائق ما كان يجوز أن تستخفي!

ولنتساءل أولا: ما القوى التي اعترضت الإسلام أول ظهوره؟ وماذا عرض لها على اختلاف الليل والنهار؟ وماذا كان موقف المسلمين منها على ما جدّ لها من أحوال؟

إن الوثنية العربية تلاشت في أرجاء الجزيرة على عهد النبي نفسه، وعادت لها صحوة الموت بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ـ ﷺ ـ ولكن أصحابه وخلفاءه أخمدوا أنفاسها إلى الأبد!

والمجوسية الفارسية مزّقت شر ممزق، وبادت الكسروية وعمّ الإسلام هذه الربوع، فتلاشت المجوسية كما تلاشت الوثنية العربية من قبل...

وقضى المسلمون على المستعمرات اليهودية داخل الجزيرة بعد ما يئسوا من محاسنتها، لكن اليهود ـ وهم قلة ماكرة ماهرة ـ استأنفوا حرب الظلام بعدما خسروا الحرب المكشوفة واستطاعوا بمؤامراتهم قتل الخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعليّ..

ولا أدري لماذا لم يعلّق مؤرخونا على الأحداث والفتن التي ذهبت بالرجال الثلاثة ويظهروا دور اليهود في استثارة الدهماء، وإشعال المعارك، وإبطال جهود المصلحين؟

على أن اليهود عادوا مرة أخرى بعد أربعة عشر قرنا يصيحون بالثارات خيبر، ويتحدثون عن أرض الميعاد التي كتبت لهم! والغريب أن العرب كانوا قد نسوا استخلاف الله لهم في الأرض، والحق الإلهي لهم في فلسطين فشرعوا يحاوبون اليهود بأنهم أبناء كنعان أخي عدنان وقحطان، وان جنسهم آصل، وأنهم أحق بهذه الأرض! ألا لعنة الله على الظالمين!!

وبقي الصراع الذي لم تخب ناره يوما! الصراع بين الصليبية والإسلام! ويبدو أن هذا الصراع باق إلى آخر الدهر! ولنا كلمة عاجلة قبل الخوض فيه؛ إن الإسلام يكرم المسيح وأمه، ويقطع دابر من يخدش شرفهما أو يتناولهما بما لا يليق!

ومع حزم الإسلام في تجريد التوحيد من أي لبس، وتوكيده عبودية الخلائق كله لله، فقد قرر أن يعيش في كنفه القائلون بالثالوث وبسط حمايته عليهم، وصان كنائسهم وشعائرهم، فما سرُّ العداوة الهائلة التي يكنها الصليبيون للإسلام؟

السرّ سياسي لا ديني! فإن الروم كانوا دولة النصرانية الكبرى قبل ظهور الإسلام، والرومان دور من أدوار الصراع الأزلي بين الشرق والغرب، وقد استطاعوا قبل اعتناقهم للنصرانية أن يبسطوا نفوذهم على أقاليم فيحاء، ثم رأى قسطنطين أن يشد أعصاب الدولة بالدين الجديد فجعل النصرانية دين الدولة.

ترى أتنصَّر الروم أم تروَّمت النصرانية؟ إن وصايا المسيح التي لا تزال مكتوبة «من ضربك على خدِّك الأيمن فأدر له الأيسر.. الخ» فهل أفاد الرومان من هذا الكلام حرفا؟ أم بقَوْا جنسا باطشا ظلوما يستهلك الشعوب ويسْطو على كل ما تملك؟

الحق أن الانتماء إلى المسيح كان غطاء لوحشية مخيفة، وأن الانتماء إلى المسيح شرف دونه الأوربيون قديما وحديثا.. إن القوم كانوا مستعمرين غلاظ الأكباد مقبوحي السيرة، ولا يزالون كذلك...

والروم قديما، والفرنجة حديثا، وأجناس أخرى تدعى «المسيحية» أولئك كلهم يكرهون الإسلام؛ لأنه الدين الذي ردّ هجومهم ووقف طمعهم. فالمسلمون العرب طهَّروا الشمال الافريقي وآسيا الصغرى من الاستعمار الروماني القديم بعد أن ظل نحو ستة قرون!

والمسلمون الترك تعقبوا الأوربيين في أقطارهم الأولى حتى بلغوا أسوار «فيينا» عاصمة النمسا، ومكثوا يقاتلون الأوربيين نحو خمسة قرون..

من أجل ذلك لا تنتهي ضغائن الأوزبيين على محمد ودينه، بل هم يفقدون اعتدالهم الفكري، والنزاهة النفسية عندما يتحدثون عن الإسلام..

وما ذنبنا نحن بإزاء هذا العوج؟ ذنبنا الحقيقي أننا لم نكن أوفياء لرسالتنا، ولا جادِّين في تعرُّف العقبات التي نعترضها، ولا طبائع الأجناس التي تقاومها..

هل درس آباؤنا العلاقات بين البابوات والأباطرة؟ هل درسوا اختلاف الكنائس شرقيها وغربيها، وتابعوا هذا الاختلاف بعد ظهور «مارتن لوثر» وانشقاق أتباعه؟

هل درسوا التيارات الفكرية ونزعات الإصلاح الديني والمدني هناك؟

هل يعلمون شيئا عن عصر الإحياء. والنقلة الرائعة التي قفزت بها أوربا من أوج إلى أوج!؟

هل درسوا السمات الجديدة للفكر الفلسفي الحديث؟

هل درسوا النشاط التبشيري بعد كشف الأمريكتين. وكيف انساحت الكثلكة في أمريكا الجنوبية والبروتستانتية في أمريكا الشمالية. وفي استراليا؟

هل لفت انتباههم توغل الدب الروسي في آسيا مكتسحا دار الإسلام. وحاملا الخراب والكفر إلى المدائن والقرى؟

هل عرفوا لماذا قتل الإنكليز مليكهم مؤمنين حقوقهم الدستورية؟ ولماذا قامت الثورة الفرنسية بعدئذ معلنة ما يسمّى حقوق الإنسان، وإن كان الفرنسيون أكذب أهل الأرض في الاعتراف لغيرهم بهذه الحقوق؟

إن الدراسات الكونية والطبيعية نقلت العالم من عهد البارود الى البخار إلى الكهرباء إلى الذرة إلى عصر الفضاء. والمسلمون صرعى ثقافات مسمومة وسياسات قوامها الجبروت لا تهب حق الحياة والكلام إلا لمن يحرق بين يديها البخور...

أهذه أمة تحمل رسالة عالمية ؟ إن الذي يبتغي إصلاح الأفكار والمشاعر لا بد أن يدرس الفكر في كل قطر. وأن يستبطن أحوال الناس على أمل تزكيتها والتسامي بها.

ومَا نستحي من اتهام أمتنا بالتفريط إلى حد الخيانة في خدمة دينها ولغتها وتراثها ويومها وغدها! إننا لم نكن نعرف أنفسنا فكيف نعرف غيرنا؟ وكنا قد نسينا ذيننا! فبم نذكّر الآخرين؟وفاقد الشيء لا يعطيه..

إن الشريف حسين في الحرب العالمية الأولى صدّق وعد الإنكليز له أن يكون ملك العرب ناسيا أن الإنكليز وعدوا مصر بالجلاء عنها سبعين مرة. وما وفوا لها بوعد...

لقد كنا في العلوم المنقولة والمعقولة أصفارا. وكان تاريخنا الطويل صحراء لا معالم لها.

ولو كنا على مستوى الإسلام لكان لنا باع طويل في كل فن. ولزاحمنا بالمناكب في كل الكشوف المادية والأدبية والعلمية التي هديتْ إليها الفطرة بعد سياحات يسيرة أو شاقة.

والغريب أن ناسا من جلدتنا لا يزالون باسم الدين يريدون استبقاء قيود التخلف والضياع..

إن ذلك يؤكد الحاجة إلى علماء بحور، بحور في جميع المعارف الإنسانية! لا فارق بين معقول ومنقول. ولا بين ماديات وأدبيات، ولا بين غيبيات ومحسوسات.

ووظيفة أولئك العلماء هي أولا: تخريج ذوي الأنصبة المحدودة التي أشرنا اليها في الفصل السابق، والتي تمثل المستوى الأدنى لرجل الشارع كما يقولون أو للمسلم العادي.

ثانيا: النظر في أساليب الدعوة العالمية وطرق شرح الإسلام خارج أرضه، وردّ الشبهات التي مَرَدَ أعداؤه على ترديدها، وتوارثوا الشغب بها على الرسالة الخاتمة.

ويؤلمنا أن هناك أزمة مخيفة في علماء الدين واللغة، وأن بقاياهم تنقرض دون عوض ظاهر.

وقد كان أولئك العلماء كثرة في العصور المتقدمة، وما ضارهم أن الحكومات تنكرت لهم، بل كان ذلك في نظر الجماهير شرفهم الباذخ، ثم بدءوا يقلّون كماً وكيفاً.

ثم جاء عصر المتأخرين من الفقهاء، وكانوا دون من سبقهم وعيا وذكاء، يغلب عليهم الضيق والاستيعاب اللفظي.

وأخيرا جاء دور أنصاف العلماء! وهم قوم لهم في كتب الدين قراءات مبتورة لا تميز غثا من سمين، ولا تعرف أصلا من دخيل، وقد اقتحموا أبواب الدعوة والفتوى وأحدثوا فوضى شديدة...

هذا مفسّر للقرآن يقول: إن آية لا إكراه في الدين منسوخة..!! ويمضي في عماه لينسخ عشرات ومئات من آيات القرآن الكريم كلها محكمة..!

وهذا متحدث في السنة يقول: ان حديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» على ظاهره، وهو جاهل! ولم يقل أحد من العلماء أن الحديث على ظاهره، بل قالوا: هذا عموم أريد به خصوص! وكلمة الناس تعني قوما معينين شرحتهم أوائل سورة براءة..

وهذا متحدث في العقيدة يقول إن وصف الله بأنه واجب الوجود بدعة! قلت له: كلمة واجب الوجود ليست من أسماء الله الحسنى فهذه الأسماء توقيفية من الشارع.. لكن وصف الله بها فيه ملحظ جميل! إن القمر جسم مظلم، ونوره بالليل هو من انعكاس ضوء الشمس على سطحه، كذلك الكائنات كلها لا وجود لها من ذاتها، وإنما وجودها من ذات الله الذي منحها الحياة والبقاء، فهو مصدر إيجادها وإمدادها، وله وحده الوجود من ذاته..

قال: هذا كلام الفلاسفة، وهو بدعة وكل بدعة ضلالة! قلت له: لا تسوِّ بين عدو وصديق! هناك فلاسفة ملاحدة، وهناك من عرفوا الله..!

لكن هذا المتكلم يستبيح دمك إذا مضيت في مناقشته!

أي بلاء يقع فيه العلم الديني إذا كان رجال التفسير والحديث والعقيدة من هذا النوع الهابط.

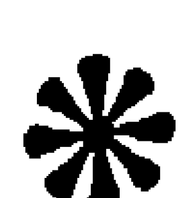
لذلك قلت: إننا فقراء إلى علماء من طراز رفيع، والقحط الثقافي الذي حل بتاريخنا من عدة قرون أتاح للاستعمار أن يصنع بنا الدواهي! لقد دقّ أبوابنا والجهل العام آخذ بخناقنا، في علوم الدين وفي علوم الدنيا على سواء..

نعم جاء أحفاد الرومان وأبناء الصليبيين هذه المرة. وتفوقهم كاسح في علوم كثيرة، ولم تقدر الحماسة العاجزة على صدِّ تيارهم. فوقف ماريشال «اللنبي» في مدينة القدس، يقول: اليوم انتهت الحروب الصليبية! ووقف القائد الفرنسي في

دمشق أمام قبر صلاح الدين يقول في تبجّح: ها... قد عدنا يا صلاح الدين... !

وما صلح به أمر المسلمين أولا هو العلم الصحيح والحكم الصحيح. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها..

وقد نتج عن قصورنا العلمي ما مكّن الغزو الثقافي من مهاجمة عقائدنا وشرائعنا بطرق مختلفة نعالجها فيما يلي ...



جيل يذهب ضحية العجز والغدر

بين يديَّ كتاب مدرسي مقرر على طلاب الثانوية العامة في دولة إسلامية عريقة، وثابت على غلاف الكتاب أنه لجميع الشعَب التي تريد نيل «البكالوريا».

طالعت في هذا الكتاب الموضوع الذي يهمني ويهم كل مسلم. موضوع «الإيمان بالله واليوم الآخر» وشعرت بغصّة والمؤلف ينقض أسس هذا الإيمان. ويجعل منه حكاية أسطورية من مخلّفات ماضٍ قليل الوعي...!

وتساءلت: هل تضليل الألوف من أبنائنا على هذا النحو جريمة فردية؟ أعني هل هذا المؤلف ملحد يريد نشر فكرة لرغبة خاصة لديه وحده؟

أم أنه يخدم جهات تريد تخريج نشء خرب القلب. جامح الهوى. فتقرر هذا الكتاب على كل شاب يريد الالتحاق بالجامعة ليطمئن الاستعمار الثقافي بشقَّيه الشيوعي والصليبي على مستقبله في بلادنا؟

أضحكني زعم المؤلف أن الإيمان بالآخرة تصدَّع لما اكتشف كوبرنيكي أن الشمس لا الأرض مركز الكون! وأن الأمر على خلاف ما تعتقد الكنيسة!

قلت: ما صلة الآخرة بهذا الكشف الفلكي؟ ولماذا ييأس الناس من عودتهم إلى الله، لأن الأرض هي التي تدور حول الشمس لا العكس؟ هذا الربط العلمي العظيم يشبه القول بأن أنف أبي الهول تحطم لأن ملكة انجلترا أنجبت ولدا ذكراً!!

إن الكنيسة تخطئ وتصيب، وهي في زعمها أن الشمس تدور حول الأرض لم تعتمد على وحي سماوي: بل كانت تتبع رأي أريسطو، وقد خالف أريسطو في هذا الزعم «أريستا خوس الساموسي» مؤكدا أن الأرض هي التي تدور حول الشمس...

فليختلف فلاسفة اليونان وكهنة الكنائس، في هذا الأمر ما شاءوا! ما علاقة ذلك بجعل اليوم الآخر خرافة؟ لكن هذا هو الفكر العلمي عند أهل الإلحاد.

ومضى المؤلف يقول: إن قضية الآخرة انهارت بعد ظهور نظرية التطور وثبوت أن الإنسان من سلالة القرود! وهو يرى أنه أشرف للإنسان أن يكون من سلالة الحيوانات، فهو خير له من أن يكون من أبناء القتلة..!

ولنذكر عبارات المؤلف الفيلسوف بنصها، قبل التعليق على أوهامه التي يحسبها علما (!) يقول: «في العصور الوسطى نظرت الكنيسة إلى الإله على أنه أشبه ما يكون بسيد يرى الخدم الذين يعملون في أرضه، وهو حر في أن يطلب منهم مغادرة الأرض ساعة يشاء، وأن يطلب منهم «الحساب» كذلك.

الله خلق الإنسان وميَّزه عن باقي المخلوقات، وسخَّر له جميع ما في الكون، وهو الذي يحدد نهايته عندما يريد.

إلا أن هذا الموقف تعرَّض لصعوبات، بسبب بعض الاكتشافات العلمية (!)

أ ـ إن اكتشاف كروية الأرض، ودورانها حول الشمس مع كواكب أخرى من طرف (غاليليو) ومن قبله (كوبرنيك) أضْعَفَ من موقف الكنيسة التي كانت ترى أن الأرض ثابتة. وهي مركز الكون. وأن الإنسان كائن ممتاز، سخرت له جميع الكائنات الأخرى!

عندما قال (غاليليو) بدوران الأرض. اعتبرت الكنيسة هذا الموقف منافيا للدّين، بل خطرا عليه، لأنه يفقد الإنسان الامتياز الذي منحه الله إياه. ولم تتردد الكنيسة في الحكم على (غاليليو) بالموت.

ب ـ الصعوبة الثانية التي تعرض لها الموقف الديني، كانت على يد (دارون) الذي جاء بنظرية التطور. ولقد وصلت نظرية التطور إلى النتيجة الآتية: وهي أن لا فرق بين الإنسان والحيوان إلا من حيث الدرجة لا من حيث النوع: ويجب أن نقبل أن يكون أجدادنا قردة! بل إن (دارون) يدعو إلى الافتخار بهؤلاء الأجداد لأن الانتساب للحيوان ـ كما يقول (دارون) ـ أفضل من الانتساب الى الإنسان، الذي يقتل أخاه الإنسان بدون مسوغ.

إذن لم يَعُد الإنسان في نظر (دارون) كائنا ممتازا، بل أصبح مجرد كائن يحتل رتبة متقدمة في سلم التطور.

وهذا يتنافى بوضوح مع الدين الذي يرى أن الله ميَّز ـ منذ بدء الخليفة ـ بين الإنسان وبين الكائنات الأخرى.

جـ ـ إن علم الاجتماع وهو أحدث العلوم التي استقلت عن الفلسفة، يؤكد لنا حقيقة موضوعية وهي أن الإنسان وليد البيئة وأن جميع ما يأخذ به من أفكار ومعتقدات، ليست نهائية ومطلقة؛ لأنها تختلف من مجتمع لآخر، ومن عصر لآخر. فما قد تعتقده جماعة، قد ترفضه جماعة أخرى.

د ـ وهناك صعوبة أخرى واجهها الموقف الديني بعد اكتشاف التحليل النفسي. إن التحليل النفسي يؤكد لنا أن أفكارنا ومعتقداتنا ليست مطلقة. بل هي نتيجة لعوامل خفية، أو لا شعورية.

فإذا لجأ البعض إلى التدين، فما ذلك إلا ليعبروا عن رغبات مكبوتة. وكان يمكن لهم أن يلجأوا إلى وسيلة أخرى للتعبير عن هذه الرغبات. فالتمسك بالدين ليس إلا مظهرا خاضعا لعوامل لا شعورية، ويرى (فرويد) أن هذه العوامل تكون في الغالب عوامل جنسية.

هذه أقوال متناثرة جُمعت على استكراه لتخلق صعوبات عقلية أمام الإيمان باليوم الآخر، أو اللقاء المحتوم مع الإله الذي خلقنا أول مرة.

وقد حاولت عبثا أن أفهم منها ما يريد المؤلف فعجزت. خذ مثلا كلامه عن علم النفس، إن فرويد يرى الغريزة الجنسية الأساس الفذ للسلوك البشري أجمع! وقد رأت باحثة أخرى أن غريزة الأكل أولى بهذه الصفة فهي التي تستهلك أعمار البشر! وترهق أعصابهم بمطالبها، ورأى باحث ثالث أن غريزة «الشعور الإيجابي بالذات» من وراء الكفاح الرهيب على ظهر الأرض..

ثم تخطى علم النفس نظرية الغرائز «امكدوجل»، وتحدث عن دعائم أخرى للسلوك الإنساني ، لا نشرحها هنا..

والذي ألحظه أن الناس متفاوتو الطباع، وأن هناك من يهيم بالنساء، ومن يهيم بحب المال وطلب الثراء، ومن يضحي بكل شيء طلبا للظهور والرياء!!

وقد عُرض على الأفغاني الزواج فأبى، وعاش ابن تيمية أعزب، وكذلك كان أبو مسلم الخراساني، وكل من هؤلاء كان له شأن يغنيه!

وقد تكون الغريزة الجنسية شديدة الوطأة، لكن عرامها أو هزالها لا علاقة له بعقيدة «المصير» أو البعث والجزاء، كما يزعم هذا المؤلف..

وننتقل إلى علم الاجتماع والباحثين فيه، ومنهم التائه والراشد، والبصير والضرير! ! هل إذا قال أحد هؤلاء: إن الدين ظاهرة اجتماعية . فإن كلمته تصبح حكما فصلا ليس بالهزل؟ إن الدين حقيقة عقلية، وخلقية. وعلاقة قائمة بين الناس ورب الناس.

عن أي دين يتحدث هذا المؤلف، أو ينقل عن المتحدثين؟ عن عبادة الأحجار أو عبادة الأبقار، أو عن تصور الألوهية وفق شائعات غامضة وأقوال متناقضة كبعض الأديان السماوية؟

إن التحقيق العلمي لا يعني المؤلف ، إن ما يشدُّ انتباهه، هو وصف المتدينين بأنهم ينفِّسون عن رغبات جنسية(!).

سبحان الله، هل الذين أجهزوا على الاستعمار الروماني والفارسي قديما كانوا صرعى كبت جنسي؟ ما أحوج العالم اليوم إلى هذا الكبت! !

الإلحاد ... مرض

ونخلص إلى قضية التطور كما يشرحها دارون! يرى الشيخ نديم الجسر في كتابه الجليل: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» أن دارون مؤمن بالله وأن نشاطه الفكري يدور حول: هل صدر العالم عن الله بصورته المعاصرة، أم أنه صدر عنه في صورة أدنى، ثم صعد في سلم الارتقاء إلى ما نراه الآن؟؟

ولم يقدم دارون إجابة حاسمة في الموضوع الذي عالجه؛ لأن هناك حلقات مفقودة تجعل نظرية النشوء والارتقاء محاولة مبتورة، زد على ذلك أن تلامذته الأقربين نقضوا الكثير من مقدماته، مما جعل الفكر الدارويني ينحسر ويتراجع!

فبأي منطق علمي يسوق المؤلف لشباب الثانوية العامة فكر دارون على أنه حقيقة علمية مؤكدة، وأنه يفهم من هذا الفكر أن الإنسان تراب فقط، وإلى التراب ينتهي ويتلاشى فلا بعث ولا جزاء.

في أي معمل كيماوي أو مرصد فلكي ثبت أن الروح خرافة، وأن النفس الإنسانية بخصائصها العالية عَرَض عابر، أو وهم لا بقاء له..؟

لا ريب أن الإنسان خلق من تربة هذه الارض كما قال تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[83].

ونحن نشهد نبات الأرض يتحول في جسومنا إلى لحم ودم، فمن يحوِّله كذلك؟ من يحوله إلى خلايا ذات وظائف مذهلة؟ كيف يُتصور أن الروح هي الأخرى حفنة تراب، وأن الشعور والفكر والعاطفة والذاكرة والخيال بعض الطين المنتشر في أرضنا؟

إن لدى بعض الناس جنونا في إرسال كلمات موغلة في الكذب، قال لي أحدهم: إن العلم بدأ يخلق الأطفال في الأنابيب! قلت: كيف؟ إن الطبيب يجيء بحيوان منوي لم يخلقه يقينا ويضمه الى بيضة من الأنثى لم يخلقها يقينا، ويضع ذلك في مخبار لمدة عشر ساعات، أو أكثر قليلا، ثم يغرسه بعد ذلك في الرحم، ليبقى في جسم المرأة تسعة شهور، هي مراحل الحمل المعتاد حيث يصْنَع أحسن الخالقين الجنين، وتتم بعدئذ الولادة المعتادة! ما الذي خلقه العلم؟ إن الكفر كالجنون فنون..!

وهذه قصة ملحد آخر دخل المجلس وهو يقول: أنا عائد بعد ما درست للطلاب أن المادة لا تفنى ولا تستحدث!

قلت له: إنني سمعت هذا الكلام وأنا طالب، وأحسب أنه الآن قد ظهر زيفه! قال: كلا، هذا هو العلم! قلت:

---

(83) سورة طه 55.

إذا كنت أنا وأنت قديمين فأين كنا من مائة عام؟ ما أظننا إلا حادثين بالميلاد! قال: مادتنا قديمة، لعلنا كنا ترابا في مكان ما من الأرض، وقطرات ماء في مكان ما من البحار أو الأنهار. أما ميلادنا فليس إلا تغيرا في صورة الوجود!

قلت: وأرواحنا وخصائصنا الفكرية والعاطفية، إنني أحس بأنها محدثة يقينا!

قال: الأفكار والمشاعر ليست إلا تفاعلات مادية لا قيمة لها... والروح خرافة!

قلت: فلأصدق جدلا أن ما حدث هو تحولات في مادة قديمة، وليس إيجادا من عدم، لكن من المحوّل؟

من الذي حوّل التراب الحقير إلى بصل وحرجير، ثم إلى قردة وحمير، ثم إلى هذا الإنسان الخطير؟

إن هذا التحويل يحتاج إلى مؤهلات رفيعة القدر!

قال: ماذا تعني؟ قلت: على جانب وجهي أذنان بهما أجهزة استقبال معقّدة، وفي الوجه عينان بهما أجهزة تصوير، وتحميض وانعكاس واعتدال، وهذا المخ الغريب! إنه «كمبيوتر» أو حاسب، يهيمن بأسلوب ساحر على شبكة أعصاب، تضبط الجسد كله.

وهذه المضخة الماصة الكابسة في القلب، تدفع الدم وتستقبله بانتظام، ثم ألا ترى هذه الكلى؟ إنها إذا تعطلت ذهبنا إلى جهاز كبير يعالج الفشل الكلوي بعناء!

من صنع هذا كله؟ قال: الطبيعة ذكية!

قلت ما أشبهك بشخص وقف أمام قصر منيف ثم أخذ يقول: هذه نافذة ذكية، لأنها اختارت مكانا يستقبل الضوء، وهذه شرفة عبقرية، لأنها اختارت

مكانا يستقبل الهواء، وهذا سقف فنان، لأنه اختار ارتفاعا يسمح بدخول السكان.. وهكذا وزع صفات المهندس المنشئ على الخشب والرخام والزجاج.. الخ.

اسمع أيها الرفيق، إن حمار الحكيم أذكى منه. لقد ألقى الحكيم على طلابه درسا مثلك، فرووا أن حماره أنشد هذين البيتين:

قـــال حمار الحكيم تومـــا   لو أنصف الدهر كنت أركب
فـــإنني جـــاهـــل بســـيـــط   وصـــاحبي جـــهـــلـــه مـــركب

إن الظن بأن الإلحاد فرط معرفة، أو زيادة ذكاء ـ كما يتوهم المغفلون ـ لا أساس له، إن الإلحاد مرض نفسي ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ**﴾[84]

وزنادقة العرب حين يرددون ما يقوله العلمانيون، أو الماديون، يقومون بنوع خبيث من التدليس في النقل والعرض، فقد تابعت كلام بعض الضائقين بالدين، والكافرين برجاله، فوجدت لهم عذرا!!

هذا رجل ذكي نشأ في جنوب آسيا، أو شرقها حيث يُعبد بوذا أو براهما، فعاف فكره أن ينحني لصنم، أو يبتسم لبقرة، ولو كانت ضاحكة، وأعلن أنه بعيد عن الدين، وكافر بالإله المعهود بينهم! فهل ينقل كلامه على أنه تمرُّد على الدين كله، وكفران برب العالمين..؟

وإذا كان رجال الكنيسة في العصور الوسطى، قد رأوا أن الأرض ثابتة، وهي مركز الكون وأن الشمس تدور حولها، وإذا كانوا قد ابتدعوا من قبل ومن بعد أساطير في العقيدة والسلوك، فهل الرافضون لهذه الكهانات كفار بعيسى وإنجيله والوحي ومنزله والدين وربه؟؟

---

(84) سورة غافر 56.

إنهم أقرب إلى الفطرة من رجال الدين أنفسهم، والكفر بالطاغوت ذريعة إلى الإيمان بالله، ونحن ـ المسلمين ـ أعرف الناس بعيسى، وبما آتاه الله من حكمة ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(85).

وقد تدبرت كلمات لأنشتين تحدث فيها عن إيمانه بالله، وعن إعجابه العميق بصنعه، وعن استشراف فؤاده لعظمته وهو يشهد آثار إبداعه وحكمته، فأحسست أن هذا العالم الذكيّ مؤمن بالله الحق.

وأحسست أنه يدور ـ وهو لا يدري ـ حول الآيات القرآنية في وصف الله تبارك اسمه ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ... يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(86).

والرجل أذكى من أن يخلط بين الكون ومكونه، والمخلوق وخالقه، بيد أنه رفض بقوة الإيمان بإله من النوع الذي يُعرض رسمه في معابد الغرب، إله مثقل بصفات العجز أو الغفلة، ومن ثم فهو يعتزل هذا الإله، وينأى عنه!

ولذلك كان من التدليس المفضوح أن ينقل مؤلف الفلسفة للثانوية العامة عن آنشتين إنه كافر بالله، أو ما يفيد إنكاره لوجوده! قال: «عندما نتساءل: هل الإله موجود أو غير موجود؟ فإن جوابنا على السؤال يرتبط بالمعنى الذي نعطيه لكلمة إله، وهذا ما أكّده «أنشتاين» عندما سأله أحد الصحافيين ذات مرة: هل تؤمن بوجود الإله؟ فأجاب: حدّد لي أولاً ماذا تعني بكلمة إله، وبعد ذلك سأقول لك إذا كنت أومن بوجود الإله أو لا أومن به.

---

(85) سورة الزخرف 63، 64.

(86) سورة الحديد 3، 4.

والجدل الذي ينشأ عادة بين من يقول بوجود الإله وبين من ينفي هذا الوجود ينتهي إلى جدل «بيزنطي» لأن كلا منهما يعطي مفهوما خاصا لكلمه إله.

لذلك فإن الإجماع على وجود الإله ليس دليلا كافيا، على أن الإله موجود فعلا. فالإجماع قد يكون إجماعا ظاهريا.

وقد عرف الفكر البشري إجماعا على خطأ، وهو أن الأرض ثابتة. وهي مركز الكون. فالإجماع على القول بثبوت الأرض لم يمنع أن الأرض كانت تدور حتى عندما كان هناك إجماع على غير ذلك».

بهذا التدليس في النقل، والكذب في التعليق يتناول المؤلف «الحقيقة العظمى» في الفكر البشري، ثم يطوّح بها في مهاوي الخرافة دونما اكتراث..

ثم يمضي في تخيُّر أقوال تخدم غرضه، وتوهين ما لا يعجبه من آراء!

وظاهر من السياق كله، أن الغاية المنشودة تضليل الشباب المسلم، وإفهامه أن الدين وهم، وأن الإلحاد هو منطق العلم، واتجاه العقلاء..

مسكين هذا الشباب الذي لا راعي له...

قد يكون من العقل الكفر بآلهة اخترعها الخرافيون، وقد يكون من العقل ازدراء الآراء التي يرسلها الكهنة دون سناد أو برهان! فهل من العقل إنكار الإله الحق بديع السموات والأرض، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأحكم كل ما أوجد من الذرّة إلى المجرة؟

إن محاولة انتزاع شعرة من جلد إصبع في القدم، تجعل المخّ يرسل صيحات ألم متتابعة ويبعث على حشد أسباب الدفاع، فهل المصادفات الموهومة هي التي خلقت هذا الجهاز العصبي الرهيب؟

إن للاحتمالات قانونا ينفي نفيا قاطعا كل دعوى بأن شيئا ما تخلّق بطريق المصادفة.

ثم إن قانون العلة يحكم أفكارنا كلها، فلما نرفض أن يقع شيء ما دون سبب أو دون فاعل، فإذا اتصل الأمر بخلق السموات والأرض جاء من يزعم أن هذا الوجود تمَّ بلا فاعل ولا سبب؟ ﴿**اللهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَـٰتِ اللهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ. قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَـٰهِلُونَ**﴾[87].

والغريب أن مؤلف «الفلسفة لطلاب البكالوريا بجميع فروعها» يقول: إن هذا البرهان يصطدم بصعوبة كبرى عرفت باسم «مشكلة الشر» لماذا وجد الشر؟ كيف يمكن أن نعتقد بوجود إله قادر، وخيِّر، ونعتقد في الوقت نفسه بوجود الشر؟ لماذا لا يزيل الشر؟

إن هذه الأسئلة الطفولية ذكرتني بقصة طريفة، فقد وضعتُ اختبارا لأحد الصفوف الدراسية، ويبدو أن أحد الطلاب لم يكن مستعدا فخرج.يقول: لو كان الأستاذ رجلا صالحا كما يزعمون ما وضع هذه الأسئلة الصعبة!

إن الطالب البليد أنكر صفة الصلاح فقط، ولو كان فيلسوفا على النحو الذي رأينا لأنكر وجودي كله!!

الله يقول عن ذاته وعن عمله ﴿**تَبَـٰرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[88].... ويقول: ﴿... **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[89]، فهل نقول له: ما دمت تختبرنا فسننكر وجودك!!

أهذه هي الصعوبة الكبرى التي تصطدم بها أدلة الوجود على إله قادر حكيم؟

---

(87) .سورة الزمر 62، 63، 64

(89) سورة الأنبياء 35.

(88) سورة الملك 1، 2.

تلك ـ ونقولها ضجرين ـ هي عبقرية الالحاد الذي يغزو بلادنا ويشارك في توجيه الشرق الشيوعي والغرب الصليبي على سواء...

مسئولية المسلمين تجاه الإلحاد

الواقع أننا ـ نحن المسلمين ـ المسئولون الأوائل عن ظهور هذا الإلحاد في بلاده، وعن مصاب الإنسانية عامة به ثم عن اكتوائنا بناره بعد ذلك...! فلولا تقاعسنا عن أداء رسالتنا الكبرى، ما كانت المعركة بين العلم والدين، وما استفحل خطر الإلحاد على هذا النحو المزعج، وما استشرت المذاهب المادية وفتكت بالجماهير كما نرى...

كان لدينا ما يقنع العقل المتطلع المستكشف، وكان لدينا ما يشبع الطبيعة البشرية المتشوفة إلى الرضا، وكان لدينا ما يوفر الكرامة الفردية والاجتماعية لإنسان نفخ الله فيه من روحه، فهو يبغض الهوان والإهانة..

لكننا جهلنا، أو تجاهلنا ومضينا في طريق آخر، أحيينا فيه مساوئ أهل الكتاب السابقين.

إن الله يقول لنبيه محمد ﷺ ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**[90]﴾ المهمة واضحة، فغاية الرسالة استنقاذ الناس من ظلمات الفوضى والجهالة والفساد والاستبداد إلى آفاق أزكى وأسمى..

والرسول لا يحيا للدهر كله، وإنما تقوم أمته بعمله بعد موته. ولذلك يقول الله ﴿**أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا..**﴾[91] أي مهمة الأمة إعلان حرب على الظلام حيث كان. بالعلم يحارب الجهل، وبالعدل يحارب الظلم، وبالنظام تحارب الفوضى، وهكذا..

(90) سورة إبراهيم 1.
(91) سورة فاطر 32.

لكن أمتنا ـ عفا الله عنها ـ اعتراها إغماء، ولا أقول موت، فلم تؤد الوظيفة المنوطة بها، وذهلت عن عالمية الرسالة التي كلفت بأدائها، وحسبت أن الإسلام نظام داخليٌّ لها وحدها، فقبعت وراء حدودها، تحيا وفق ما يتاح لها من حياة، وتمزق أردية الإسلام التي لفَّتْهَا الأقدار بها لتواري سوءاتها، وما زالت كذلك حتى وثب خصومها عليها، ليلغوا أولا شريعتها، ثم لينقضوا بنيان العقيدة التي تقوم عليها..

أين خلفاء محمد،لا أقول ليخرجوا العالم من الظلام إلى النور، بل ليخرجوا أمتهم من الظلام إلى النور! إن الإلحاد يتحدى، وله الحق،فقد خلا الجوُّ له، والعلم الديني والتطبيق الديني غير مؤهلين للنصر بما يحملان من جراثيم الضعف والعجز...

إن المذاهب المادية تستغل أخطاء الفكر الديني في إحراز انتصارات كبيرة، وتستهوي الناس بما تقدم من حلول سريعة لمشكلاتهم على حين يتصف المتدينون بالتعقيد، وضعف الإحساس بمعاناة الناس.

والقرآن الكريم يصف البشرية المصابة بهذا التدين وصفا يجعلها أنزل رتبة من الذين لم يتدينوا أصلا. ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَٰتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**!..[92].

البغي، وقسوة القلب، وإيثار الشكل، وتجاهل الأركان، وغير ذلك من الأمراض النفسية هوّن من قيمة الدين وأثره..

وعندما يخدم المتدينون الاستبداد السياسي ويجحدون قاعدة الشورى، فإن الباب سوف ينفتح لديمقراطية تسوِّي بين الطاهر والعاهر.

---

(92) سورة البقرة 213.

وعندما يعيشون في كنف ذوي الثراء، ولا يبالون من أين يكسبون، ولا فيم ينفقون، ولا يتساءلون عن الحق المعلوم، أخرج أم لم يخرج، فإن الباب ينفتح لماركسية تكفر بالله، وبالإنسان معا..

وعندما ينظرون ببلادة إلى الغريزة الجنسية، ولا يسارعون إلى توفير مهادها الحلال ثم تتضافر جهودهم لحماية الأسرة، فإن الحرام سيكون الجواب الحتم!

إن المتدينين من قديم ولا يزالون إلى الآن يتعثرون في قضايا خلقية، واجتماعية، وسياسية كثيرة، بل إن تصوراتهم الثقافية موضع دهشة.. فيوجد من يؤلف ضد دوران الأرض حول الشمس، ويؤيد موقف الكنيسة في العصور الوسطى، ويدعي مع ذلك أنه سلفي! ويوجد من يأمر التلامذة بتخريق صور الأحياء في كتبهم، لأن التصوير محرم، ويوجد من يرى كشف الوجه نوعا من الزنا، أو طريقا إليه، ويوجد من يهاجم كون الأمة مصدر السلطة، ويوجد من يتنكر بقوة لتكوين الأحزاب، ولا يهمس بحرف ضد تقييد الحريات، ويوجد من يحسب إقام الصلاة مغنيا عن تعلم الصناعات، ويوجد من يعيش مع أعداء الإسلام في القرن الرابع، يهاجمهم وينال منهم، ولا يدري شيئا عن أعداء الإسلام في هذا القرن!

ألا يمهِّد هذا كله لإلحاد مدمِّر؟؟

بعد عشرين سنة من بدء الوحي حذّر الأمة الإسلامية أن تسري اليها أمراض أهل الكتاب، فيعتل إيمانهم ومسلكهم كما اعتل إيمان اليهود والنصارى من قبل، قال سبحانه: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِم الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾**[93]

---

(93) سورة الحديد 16.

وأمراض التدين المنحرف تتشابه على مرّ العصور، جرثومتها الأولى، جفاف الشعور وضيق التفكير، وقسوة القلب، والانسلاخ العام من الفطرة، والتعلق الشديد بالمراسم والصلف بمعرفة الحق، والميل إلى سوء الظن ومعاملة المخطئين بجبروت.

وتلك كلها آفات ينكرها الدين، ولا يعد أصحابها على شيء منها بلغت عباداتهم...!

وقد ذكرنا كيف بدأ الانحراف في تاريخنا بانفصال الحكم عن العلم، وحدوث فجوة أو جفوة بين الحكام والعلماء... إلا أن انفصالا آخر وقع في ميدان العلم نفسه، بين رجال الشريعة ورجال التربية، انتهى بجعل الأخلاق علما نظريا أو أدبا ثانويا! وجعل العبادات والمعاملات، عادات، موروثة، وتقاليد متبعة! وبذلك تقطعت الصلات بين الأمة والدولة، ثم بين الأمة بعضها مع البعض الآخر، وابتعد الجميع عن روح الإسلام.

والأمم لا تقوم بهذا التآكل في روابطها الأولى، بله أن تؤدي رسالة عظيمة...

وأتعرض هنا لقضية واحدة: هل الدين قاس على المخطئين ، يبيت لهم العقاب ويتربص بهم الدوائر، ويسعى للخلاص منهم؟؟ أم له موقف أحنى وأرعى بغية تألفهم واستصلاحهم؟

إن عيسى بن مريم لم يكن يشجع الزناة حين جاءوا له بامرأة عاثرة كي يرجمها فقال: من لم يكن منكم بلا خطيئة فليتقدم لرجمها...

إنه كان أولا يستبشع سيرة نفر من علماء اليهود يشتهون أن يروا المخطئ مطروحا للعقاب مفضوحا بين الناس، إنهم ـ بهذه الشهوة ـ ليسوا أفضل من الزانية.

وكان ثانيا يريد إعطاء العاثر فرصة يستعيد فيها رشده، ويصلح نفسه، فمهمة الدين إذا رأى عاثرا أن يعينه على النهوض، لا أن يتقدم للإجهاز عليه.

وعيسى في هذا شبيه بمحمد ـ عليهم جميعا السلام ـ الذي كان يلقّن المقر بالزنا كلمات الرجوع والنجاة من الموت..

ولسنا بتاتا نلغي وظائف الشرطة والقضاة، أو نهوّن من شرائع الحدود والقصاص.. فالقانون الخلقي باق،والقانون الجنائي باق، وكلاهما له نطاقه الذي يعمل فيه، وكلاهما ضرورة اجتماعية...

إننا نريد أن ننفي عن الدين تهمة القسوة، متذكرين مع ذلك قول الشاعر

فقسا ليزدجروا ومن يك راحما فليقس أحيانا على من يرحم

والناس معادن، وللمعدن الواحد أحوال يصفو فيها ويكدر، وسنة صاحب الرسالة الخالدة أن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقاب...

ولينظر المسلم معي في هذه الآثار، جاء في الصحيح عن أبي أمامة رضي الله عنه ـ وكان من أهل الصفة ـ قال: بينا أنا قاعد مع رسول الله ﷺ في المسجد جاءه رجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فأقمه علي، فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا رسول الله، إني أصبت حدا فأقمه علي؛ ثلاث مرات ، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف تبعه الرجل! قال أبو أمامة: فأتبعه أنظر ما يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إني أصبت حدا فأقمه علي، فقال له: ألست حين خرجت من بيتك قد توضأت فأحسنت الوضوء ؟ قال بلى! قال: وشهدت الصلاة؟ قال نعم! قال: إن الله قد غفر لك حدك ...

وروي عن أبي الدرداء : أنه أُتيَ له بامرأة سرقت ـ ليحقق معها ويعاقبها ـ فقال لها أبو الدرداء: سرقت؟ قولي: لا ..!

وهو تلقين غريب! ولكنه يشير إلى طبيعة الدين في درء الحدود والتنفس عن الخاطئين.

وقرأت أن مرتدا سيق إلى المأمون لينال عقوبته، فرأى المأمون أن يحاوره، قال له كلامك معي لا يضرك وقد ينفعك، ومن الخير أن تزداد بصيرة في أمرك، فربما بقيت على ما أنت عليه، بعد هذا الحوار، وربما تكشَّفَ لك ما يرجعك إلى ما كنت فيه، والحازم لا يضيع فرصة عرضت.

وإليك نصّ الحوار كله نثبته لما فيه من فائدة:

يروى أن المأمون أُتي بمرتد عن الإسلام إلى النصرانية فقال له: أخبرنا عن الشيء الذي أوحشك عن ديننا بعد أُنسك واستيحاشك مما كنت عليه، فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به، وإن أخطأك الشفاء ونَبَا بكَ عن دائك الدواء كنتَ قد أعذَرْت، ولم ترجع على نفسك بلائمة. فإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة، وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة، وتعلم أنك لم تقصِر في اجتهادك، ولم تفرط في الدخول في باب الحزم.

قال المرتد: أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم.

قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كالاختلاف في الأذان والإقامة، وتكبير الجنائز والتشهد، وصلاة الأعياد وتكبير التشريق، ووجوه القراءات، ووجوه الفتيا، وهذا ليس باختلاف، إنما هو تخيير وسعة وتخفيف من المحنة. فمن أذن مثنى وأقام مثنى لم يخطئ. ومن أذن مثنى وأقام فرادى لم يخطئ. ولا يتعايرون ولا يتعاتبون بذلك. والاختلاف الآخر: كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث مع اجتماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان

الذي أوحشك هذا حتى أنكرت له هذا الكتاب، فقد ينبغي أن يكون اللفظ لجميع التوراة والإنجيل متفقا على تأويله كما يكون متفقا على تنزيله، ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات، وينبغي لك ألا ترجع إلّا إلى لغة لا اختلاف في تأويلها من لفظها، ولو شاء الله أن يُنْزِل كتبه ويجعل كلام أنبيائه ورثة رسله لا تحتاج إلى تفسير لفعل. ولكنا لم نر شيئا من أمر الدين والدنيا وقع على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت المحنة والبلوى، وذهبت المسابقة والمنافسة، ولم يكن تفاضل، وليس على هذا بني الله أمر الدنيا.

فقال المرتد: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله وأن المسيح عبد الله، وأنك أمير المؤمنين حقا.

لو كانت للمسلمين خلافة راشدة تتعاون في ظلها الكفايات العلمية والتشريعية والتربوية، ما وجد الإلحاد الديني أو السياسي أو الاقتصادي مسربا يدلف منه إلينا ولا إلى غيرنا...

لكن الأمر اغتصبه من لا يستحقه فوقعت فتن تدع الحليم حيران.

لما أفضت الخلافة إلى بني العباس، وملك الأمر عبد الله السفّاح جاءه السيّد الحميري ينشد هذه الأبيات.

دونكموهـا يـا بني هـاشم	فـجـدِّدوا ميراثها الـطـامسـا
دونكموهـا فـالبسوا تاجهـا	لا تَـعْـدَموا مـنكم لها لابسا
خلافـة الله وسلـطـانـه	ومـنبر كـان لـكـم دارسا
قـد ساسهـا قـبلكمُ ساسةٌ	لم يتركوا رطـبـا ولا يـابسـا
لـو خـيِّـر المنبر فـرسانـه	مـا اخـتـار إلا منكـم فارسا
والملك لو شور في ساسة	مـا اخـتـار إلا مـنكـم سائسا
لم يُبق عبد الله بالشام من	آل أبي الـعاص امرءا عاطساً
فلست من أن تملكوها إلى	مـهبط عيسى، منكم آيسا...

قال الرواة : فأمر الخليفة له بمائة ألف درهم، وقال له: سل حوائجك !
فقال الحميري: ترضى عن سليمان بن حبيب وتوليه الأهواز! فأمر الخليفة بجعل سليمان أميرا على الأهواز..

هكذا ـ باسم الإسلام ـ نهب مال الأمة، ونيلت مناصبها الكبرى، وتمنى الشاعر أن تظل الخلافة في عائلة العباس إلى نزول عيسى بن مريم...

وقد خيب الله الأمل! وزالت الخلافة المذكورة بعدما عانى الإسلام منها البلاء الشديد...

والمهم أن بعض المتحدثين في الإسلام لا يدري شيئا عن اختيار الخليفة، ومراقبته، ولا عن أسلوب الشورى ومن يستشارون وَلَا عن المال العام وكيف ينفق... وكل ما يعرفه أن يهاجم الديمقراطية مثلا باسم الإسلام المظلوم...

إن شباب الجيل المعاصر يعاني من فتنة مزدوجة، فالحضارة الحديثة تعرض عليه مذاهب براقة، تخفي السم في الدسم! والمحسوبون على الإسلام يعرضون عليه أفكارا ممجوجة، ويطلبون منه أن يستسلم إليها، لأنها من الله ورسوله، وهم كذبة!

الروّاد الجدد يقولون له: نريد حكومة تخضع للأمة إن أحسنت استبقتها، وإن أساءت استبعدتها ولا كرامة، لا بد للحكومة أن تستشيرنا وتخضع لما نريد.

والمتحدثون الإسلاميون يقولون له: الشورى لا تلزم حاكما، وله أن يمضي وفق ما يرى غير آبه لتوجيه المستشارين!

إن الكلام الأول أشبه بما كان عليه الأمر أيام الخلافة الراشدة! أما كلام الإسلاميين فهو امتداد لمنطق الخلافة غير الراشدة التي ابتلى المسلمون بها دهرا...

وعندما ينهزم المنطق الإسلامي المزعوم، ويبدأ حكم الشعب تتغير مقررات وتنتقص مسلّمات!

والسبب؟؟ غباء متحدثينا وعرضهم باسم الإسلام كلاما يأباه الإسلام.
وقل مثل هذا في قضايا المال، والمرأة، والعلم، والحرب، والحرية.. الخ.

إذا كان أولو النهي يشكون من المظالم التي تقع باسم الحرية. والسرقات التي تقع باسم الاشتراكية فكم نشكو نحن من الجهالات والسخافات التي تقع باسم الدين!!

والسنة النبوية مهرب رحب لمريدي العبث، وناشري الفوضى..!

فهناك أحاديث موضوعة مرت، وأحاديث ضعيفة قويت، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضعها، وسيقت في غير محلها..!

وإذا كنا أحيانا نسمع شكوى من الإسراف في استعمال الدواء، وقدرة الجمهور على شرائه وسوء التصرف فيه، فإن الشكوى نفسها يمكن توكيدها بالنسبة إلى أحاديث كثيرة تقع بين أصابع الدهماء فيخوضون فيها ببلاهة، ويسيئون أكثر مما يحسنون!

ولم الدهماء وحدهم؟

لقد سمعت عالما يخطب فيورد في ذكرى المعراج حديث «دنا الجبار فتدلّى»..!!

فبادرت أقول له: إن الذي نزل بالوحي هو جبريل لا غير، أسمعت؟ قال: إنني نقلت رواية البخاري! قلت له: القرآن قاطع فيما أذكره لك: **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾**[94] والذي رآه محمد عليه الصلاة والسلام هو جبريل كما جاء في سورة أخرى: **﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾**[95]!!

---

(94) سورة الشعراء 193، 194.

(95) سورة التكوير 19، 20، 21، 22، 23.

قال: ورواية البخاري؟ قلت: صححها تلميذه مسلم بأدب العلماء، فقال إن الحديث رواه شريك عن أنس بن مالك فزاد ونقص وقدم وأخر أي إن السياق غير مضبوط، ولا يعمل به!!

وقد ظهر ناس يَتَسَمَّوْن أهل الحديث لا يعلمون عن القرآن شيئا، وبضاعتهم في فقه السنة مزجاة، فيهم شَبَهٌ من فكر الظاهرية، ومزاج الخوارج، وفيهم جمود يغطُّونه بدعوى الاتِّباع، وفيهم جراءة على أئمة الفقه الكبار، وفيهم اعتداد بأنفسهم وكأنهم المتكلمون باسم الله ورسوله! وفيهم سوء ظن بالآخرين واشتهاء للنيل منهم والوقيعة فيهم...

وقد كثر هؤلاء في هذه الأيام العجاف، ولولا علمي بأن الجاهل عدو نفسه لقلت: إن الاستعمار هو الذي يحركهم ، وينطقهم ، وينشئ لهم جماعات في أقطار متباعدة، لأنهم مهرة في تقطيع وحدة الأمة!!

قديما كان العمل بالنصوص صبغة المجتمع كله، وكانت نسبة الجامعين للقرآن الكريم لا تعدو 10٪ في عصر الصحابة نفسه، أما العارفون للأحاديث فنسبتهم أقل. وما يحتاج المسلم في حياته إلا إلى بضع عشرات من أحاديث الآحاد..

إن ما تواتر من العقائد والعبادات والأخلاق هو قوام الإسلام وحياة الأمة، وما زاد يحتاج إليه متخصصون في أعمال أخرى، ولا يجوز أن يزاحم الأركان بله أن يطغى عليها..

وقد لاحظت ـ وأنا في الجزائر ـ أن الفرض الأول في النشاط العام هو إعادة اللغة العربية إلى المكانة التي أزلّها عنها الاستعمار الفرنسي، فقد ظل ـ عليه اللعنة ـ قرنا وثلث قرن يحمل على اللغة العربية حتى اضمحلت وكادت تزول من لغة التخاطب في الشارع الجزائري.

وكان لا بد من جهاد زراعي تنجو به الأمة من أي حصار اقتصادي يجعلها تركع من أجل الرغيف!..

وكان لا بد من جهاد إداري يمنع قتل مصالح الجماهير في أدراج المكاتب، أو بين أصابع المتثائبين من الموظفين الكسالى..

وكان لا بد من جهاداجتماعي يقتلع العوائد الفرنسية، ويبني العلاقات بين الجنسين على العفاف.

وكان وكان..

في زحام هذه الواجبات تنظر إلى شباب ينتسب إلى السنة النبوية يقاتل لغايات أخرى! يقول: الأعراس فيها غناء وموسيقى، والعرس الإسلامي يقوم على تلاوة القرآن..!!

قلت: من أفتى بهذا؟

ولما كان مذهب مالك شائعا في البلاد، والمصلون يسدلون أيديهم وهم وقوف، فقد شنوا حربا على السدل، وقالوا: يجب القبض.

قلت: من أفتى بهذا؟

وحدث في مدينتين بينهما مئات الأميال أن سُئلتُ عن حديث أن موسى فقأ عين عزرائيل لما جاء لقبض روحه! لقد استغربت هذا التوافق، وقلت: أهو توارد خواطر أم تنفيذ مخطط؟؟

وعجبت أن يتقهقر الجهاد العلمي والإداري والاجتماعي من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلى شبه الشعور وأن يحل محله لغط في أحكام دينية ثانوية!

ونهرت الخائضين في هذا اللغو.. وقلت في إيجاز: جنبوا أعراسكم المجون والتكشف واسمعوا غناء أو موسيقى إن شئتم.

أما وضع اليدين في الصلاة فهيئة تستحب فقط، ومن تركها عامدا أو ناسيا فلا سهو عليه.

وأما الحديث فما حاجتكم إليه؟ لا يفيد عقيدة ولا يكلّف بعمل! وما يسألكم الله عنه يوم القيامة! وإني أرفض ربط مستقبل الإسلام وأمته تارة بحديث سقوط الذباب في الإناء وتارة بحديث خلع عين ملك الموت.

هذه أحاديث تبحث وفق المقررات الأصولية في دلالتي السند والمتن، فقد يصح الحديث سندا ويرفض متنا، لعلة قادحة، وقد رفض الأئمة الأربعة حديث رضاع الكبار مع صحته، فدعوا هذه القضايا والتفتوا لدينكم..!

إنّ الغاية من أنواع الطاعات تزكية النفس، ورفع مستواها المادي والأدبيّ برؤية المجد الإلهي، وقيام الله سبحانه وتعالى على خلقه! والإسلام هو النهج المضيء الفذ المقرر لهذه الحقائق، ويؤسفني أن بعض الناس يزيغون عنه من حيث لا يشعرون!!

لقد سألني طالب جامعي عن قوله تعالى: **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾**[96] فقلت له: المعنى واضح، العالم كله سوف يتلاشى، وينتهي وجوده، فأمانيّ الخلود سراب خادع، وللبشر بعد هذا الهلاك العام صحوة يواجهون فيها ما قدموا لأنفسهم عندما كانوا يختبرون على ظهر الأرض، على نحو ما، قال الشاعر:

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها..!

واستطردت أقول للطالب: وجه الله هو الباقي، وهو ما ينبغي أن نقصده بأعمالنا دون تعويل على غرض آخر من مال، أو جاه، أو طلب ولاء، أو ابتغاء مكانة، كما قال تبارك اسمه: **﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا**

(96) سورة الرحمن 26، 27.

شُكُوراً[97] وفوجئت بالطالب يقول لي: ما عن هذا أسأل! أنا أسأل عن تفسير كلمة «الوجه»، فنظرت للطالب بغضب بلغ حد المقت، ولكني كظمت غيظي، وأجبته ببرود: سؤال لا معنى له، إن لغات البشر كلها أعجز وأقلّ من أن تصف الجلال الإلهي، ونحن مكلفون أن نؤمن بالله وأسمائه الحسنى، دون تقعر فيما يستحيل إدراكه، إن الله ليس كمثله شيء، إن الذبابة التي تطن حولي لا تدري ولا تستطيع أن تدري شيئا عما يدور في رأسي، وما أخطه بقلمي، كذلك أنا وغيري بالنسبة إلى الذات العليا، بل نحن أدنى وأضأل...

يا بنيّ لا تؤذوا الإسلام باسم الإسلام! مرُّوا على هذه الآيات وأشباهها كما يمر العلماء بالضوء، ينتفعون به ولا يعرفون كنهه مهما حاولوا، إن الانشغال بهذه البحوث لون من البطالة المقنَّعة، واستحياء المعارك القديمة هو تجديد لمعارك الهزيمة! وشغل للمسلمين بما يضرهم ويفيد عدوهم!

إن الآيات المحكمات هن أم الكتاب، فما الذي يصرفكم عن فقهها والعمل بها، والدخول في متاهات لا معنى لها؟ أرجو ألا أسمع هذا السؤال أبدا!

(97) سورة الإنسان 9.

إنهم يتعصبون ضدّنا .. فهل نتراخى ؟!!

تداعت الخواطر في نفسي، وأنا أنظر الى تمثال الامبراطور «قسطنطين» في مدينة «قسنطينة» ، وقلت: لقد بدأت مراحل تعليمي في مدينة «الاسكندرية» أي في بلد يحمل إسم الإسكندر اليوناني، وها أنذا أعمل في بلد يحمل اسم القيصر الروماني.

وقد كان في الإمكان أن يظل الوجود الأوربي في بلادنا دهرا لولا أن الإسلام طهّر القارتين القديمتين آسيا وإفريقيا من الجنس الزاحف، ورده من حيث جاء...

ومع ذلك فقد بقيت الأسماء القديمة لها دلالتها ولها إيحاؤها!

إننا لم نفكر في تغييرها ولكن الأوربيين لم يحاولوا تغيير أنفسهم والتوبة من مظالمهم، وكأنهم يرون أن الأرض كلها كلأٌ مباح لهم، وأن أهلها كانوا عبيد الأجداد فليبقوا عبيد الأحفاد..!!

إن هذا الإصرار ازداد حدّة بعد أن اعتنق الروم النصرانية، وبدل أن يغيروا طباعهم مع التعاليم الجديدة، لبسوا جلد الجمل الوديع على حقيقة ذئب

مفترس، وهيهات أن تنطلي الخدعة، فإن الأنياب الحادة والعواء الرهيب فضحا طبيعة الوحش المختفي! وأيقن الناس أن الروم لم يتنصروا وإنما تروّمت النصرانية!

وأن الأوربيين إجمالا يريدون الاستمرار في سياسة الاغتصاب، والاجتياح، وأنهم ما آمنوا قط بحكاية «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» بل على العكس لقد انطلقوا يلطمون الوجوه عن يمين ويسار، فمن غضب لنفسه قطعوا عنقه! باسم الله!..

وتمضي المغالطة إلى آخر الشوط، فالرومان يقاتلون المسلمين في مؤتة، ويستنفرونهم إلى تبوك، أي يقاتلون العرب في أرضهم وفوق ترابهم، ثم يقولون: الإسلام دين عنف، ونحن إنما ندافع عن حقنا!

أي حق؟ وكان الفرنسيون من ثلاثين سنة يقاتلون الجزائريين في مدنهم وقراهم، فإذا زجرهم ناصح قالوا له: صه! هذه شئوننا الداخلية! لماذا تدخل أنفك فيما لا يعنيك؟ الجزائر جزء من التراب الفرنسوي!! ماذا نقول؟ إن الاستعمار لن يدع صفاقته ولا وقاحته إلى آخر الدهر حتى نرغمه نحن على تركها، بالمنطق الذي لا يفهم غيره...!!

عجيب أن ينسى المظلوم، وأن يذكر الظالم! عجيب أن يتشاغل صاحب الحق بلا شيء، وأن يفرغ صاحب الباطل لسلبه كل شيء! إنني أنظر إلى الأحزاب المخاصمة للإسلام من وثنيين وكتابيين فأجد عداوتها تزيد ولا تنقص، وأجد الخطط المرسومة لمحوه ومحو أمته تنفّذ بدهاء وخبث! وفي الوقت الذي نتجافى فيه ونتشاكس، يتساند هؤلاء ضدنا ويتصالحون على تمويتنا...!

اليهود الذين وثبوا على فلسطين، يعلنون بغضاءهم لمحمد وكتابه، ورفضهم لنبوته وأمته! ويرون أنهم أولى بالأرض والسماء منه ومن أتباعه! والغاية من إقامة «إسرائيل» محو عقيدة وجنس، وإثبات عقيدة أخرى وجنس آخر، الغاية

محو تاريخ ظل خمسة عشر قرنا، ووصل تاريخ جديد بقبائل العبرانيين الأولى بعد رمي الإسلام وأمته في البحر...

وفي سبيل هذه الغاية الرهيبة يشد الصليبيون أزر المعتدين، ويمدونهم بسيل من المال لا ينقطع، وأنواع من التأييد السياسي والعسكري لا تنتهي! إن اليد اليهودية لا تصفق وحدها، وإنما تعاونها اليد الصليبية، ومفروض أن تلتقي اليدان على عُنُق الإسلام لتهصره، وتورده الحتوف!

تُرى أتسكت الشيوعية الكارهة للإسلام وتقف بعيدا؟ كلا، إنها تشارك في الاعتراف بإسرائيل، وترى الفرصة سانحة تضم أرضا إسلامية أخرى إلى أرض الاتحاد السوفيتي التي تكوّن أغلبها من دار الإسلام المستباحة...

وهكذا أقبلت أفواج الذئاب من كل ناحية لتعيث فسادا في قطيع لا راعي له..

إن الإسلام يمرّ بأسوأ محنة عرضت له خلال تاريخه كله، وليس أعجب من تجمُّع أعدائه عليه إلا ذهول أتباعه، واحتباسهم في مآربهم، أو انشغالهم بقضايا لا تسمن ولا تغني من جوع...

إنني أفهم حقد الملاحدة على الإسلام، لأن الإسلام يشغل الناس بربهم، ويجعل الحياة والممات له، وأفهم أن يحقد عباد الأصنام والأبقار على الإسلام، لأن أولئك لا تفكير لهم ولا ضمير...

أما هذه الضغائن المتوارثة بين أهل الكتاب على الإسلام وأمته، فداء عياء وظاهر أن بغي الكتابيين أنكى من جهل الأمّيين، وأن أهواء المتعلمين ـ إذا فسدوا ـ أغلظ وأشنع من مكايد السذج...

حين أرمق المجازر التي تجتاح أبناءنا، والحرائق التي تلتهم دورهم، وأرى الموارنة والصهاينة يتسابقون في تكثير ضحاياها، وكأنما يحققون أمانيهم في الدنيا،

أقول إن هؤلاء وأولئك نسوا المثل القائل: أبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوماًما!إنهم يعتقدون أن هزيمة المسلمين اليوم هي القاضية، وأنه لن يبقى منهم من يؤسف على ما حدث له أو لآبائه...! !

لا بأس، يجب أن ندفع ضريبة التخلّف والفرقة والضعف، وإن فدح الثمن! والغيب لله، فما ندري أيكون الغد قصاصا لنا، أم امتدادا لمحْنَتِنا؟؟

على أنه من الخسة أن تترك المآسي النازلة بنا دون نكير ودون تذكير! ، وجمع هذه المآسي خلال قرون الضعف يحتاج إلى كتب مطوّلة، فهل نؤدي واجبنا؟..

أمس القريب كنت في مدينة «خنشلة» الواقعة في أحضان جبال «الأوراس» بالجزائر قال لي صديق: ألا تزور قبور الشهداء؟ قلت: هذا حق، هيا بنا، وفي الطريق أشار إلى خندق مردوم ثم همس: كان العمال يحفرون هنا فوجدوا بقايا آدمية! وتتابع الحفر والتنقيب، فإذا هنا كل عظمية لألف شهيد احتوتهم هذه المقبرة الجماعية، ومع عظام الموتى وجدت السلاسل التي تربطهم والقيود الحديدية التي كانت في معاصمهم! !

إن القتلة حشدوهم هنا ثم حصدوهم بالمدافع الرشاشة ثم أهالوا عليهم التراب ليذهبوا مع الأمس الدابر! وهاجني الغيظ وأنا أنظر إلى المكان كله، وأرى أنقاض الشباب الغضّ، والرجولات الباسلة، ومصارع الجباه الشريفة، والقلوب المؤمنة بيد الأوغاد من صليبيي العصر الحديث! وضحكت بجنون، وأنا أقول: لقد تركوا السلاسل والقيود لأنهم صنعوا الكثير الكثير منها للأحرار والموحدين! ومددت الطرف فإذا صديقي يقول: إن الحكومة نقلت الرفات الى هذه القبور التي ترى! وبنتْ متحفا يضم الوثائق لمقتل جزء واحد من ألف ألف وخمسمائة شهيد قدمتهم الجزائر لتحرير أرضها من فرنسا ابنة الكنيسة البكر كما يسمونها في أوربا..

ولتستعيد المساجد التي حوّلها الفرنسيون إلى كنائس حتى تنطلق منها أصوات التكبير والتوحيد كما كانت منذ شيدت..

ونظرت الى القبور الجديدة، فخيل إليّ أنها سطور مُنسَّقة ممتدة، لأبيات قصيدة حزينة توحي بالأسى والبكاء. غير أن إيماني عاودني على عجل: إن الشهداء أحياء، وأرواحهم ترد أنهار الجنة وتأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش! ولو عرض عليهم أن يعودوا إلى دنيانا هذه لرفضوا، ولو كانوا على ثراها ملوكا!!

لا مكان للحزن! يجب أن أتجلد وأن أتعلّم، وأن يعرف قومي فداحة ما يدفعون ثمنا لتفريطهم وضعفهم، إن ما وقع في المغرب العربي صورة لما يقع من أيام في الشرق الأوسط، وجنوب آسيا حتى الفليبين..

إن العالم الإسلاميّ يُضرب بيأس، والجلادون طامعون في إخماد أنفاسه، ولذلك لا تدركهم رحمة..

وتذكرت ما نشرته جريدة الراية القطرية عن بعض أسرار «صبرا وشاتيلا» أن أحد رجال الكتائب أدرك شابا فلسطينيا يافعا، وكان ساقطا على الأرض في فوضى المذبحة، فأخذ يتواثب فوق جثمانه بحذائيه الثقيلين حتى أزهق روحه! لم هذا الحقد كله؟ لم هذه الوحشية كلها؟ يبدو أن الجبان إذا أمن على حياته فعل كل شيء..

قال لي صاحبي: أمحزون أنت لما يصيب المسلمين من كوارث في أرجاء العالم؟ قلت: ولم لا؟ إن الطعنة التي تصيب أحدهم في الفلبين أتألّم لها في القاهرة! فكيف إذا اشتعلت النار في دار الجار؟

قال: أتعلم ما يفلسف به رجال الدين هذه المآسي؟ يقولون: إننا نرد الصاع صاعين، لما فعله السيف الإسلامي قديما بمعارضيه!

قلت: كذبوا والله، لقد كان الإسلام في عنفوان قوته رحيما، وكما قال «غوستاف لوبون» : إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من العرب!

ولو شاء لأباد طوائف كبيرة وصغيرة، وحاشاه أن يفعل، فما تلك خطته ولا تلك سيرته! ولو فعل لسكت التاريخ، مستكينا كما سكت لإبادة المسلمين في الأندلس، ولإبادتهم في الشطر الشرقي للاتحاد السوفيتي، حيث تذوب الأمة الإسلامية في آسيا الشيوعية!

إن المسلمين كانوا وما زالوا أرق أهل الأرض، ولا يزالون كذلك ما بقوا في كل صلاة يرددون هذه العبارة النبيلة: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين!

يا صاح، إن رجال الدين هؤلاء يسترون فشلهم في ترشيد الحضارة الحديثة بإعانة الاستعمار العالمي على ضرب الإسلام.

إن السيف الإسلامي المزعوم اختفى من عدة قرون! وانفرد «أهل الكتاب» بالمدنية الحديثة تحاورهم وتحاورونها فماذا حدث؟ أُبعد الدين عن ميدان الحكم، ثم أُبعد عن ميدان المال، ثم أبعد عن الآداب والفنون، ثم أُبعد عن العلوم الإنسانية، والعلاقات الجنسية، والتقاليد الاجتماعية!

إنه ـ بفضل ما لدى القوم ـ أُبعد عن الحياة كلها ولم يبق له وجود إلا في أيام العطلة ، أو في المناسبات العامة.

وليته بعد هذا الإحباط استكان، لقد تقدم في ابتسامة صفراء إلى الحكومات الاستعمارية يعرض عليها مساعداته الحميدة! فكان وراء حملات الفتنة والتدويخ التي تتعرض لها شعوب شتى من بينها، أو في مقدمتها الشعوب الإسلامية! إننا ننصح الكهنة الذين يمالئون الصهيونية، ويؤيدون المظالم أن يتراجعوا قبل أن يطول ندمهم، إنهم يهدمون ولا يبنون، وبدل أن يجتهدوا في إبقاء دينهم بأوربا ومنع الحضارة الحديثة من محو آخر أثر له حولوا جهدهم كله إلى

حرب الإسلام، وتضليل أهله...! جريا مع المثل الغربي «عليّ وعلى أعدائي» بيد أن العرب ـ قبل كل إنسان ـ مسئولون عما يقع الآن للإسلام من أحزان! إن تفرقهم الشائن أيام الحملة الصليبية الأولى هو الذي فتح الطريق الى القدس وجعل الجثث أكواما في البلد المحروب، وهم اليوم يكررون الخطأ القديم، بل ضموا إلى تقطيع الصفوف توهين العقيدة، وتهوين الأخلاق، وعربدة الشهوات...

ومع أنني عربيّ إلا أني أشعر بالخجل للمواقف التي وقفها العرب من إخوانهم وسط آسيا وشرقها وجنوبها... وبدت آخر الأمر في مشكلة أفغانستان، إن الدول العربية الضالعة مع روسيا تنكرت لها بل تجاهلتها في وضاعة عجيبة. والدول الباقية قدمت مساعدات تافهة، لا تبلغ أبدا مستوى المعركة بين الكفر والإيمان.

إن العرب أنانيون لا يهتمون إلا بأنفسهم وقضاياهم، وتأخيرهم الأخوة الإسلامية عن الجنسية العربية سيجر عليهم العار والنار في الدنيا والآخرة.

ألقى الأستاذ أحمد بهجت نورا على المعركة الأفغانية في الركن العامر الذي يملأه في صفحة الأهرام فقال: «لقد تحدث المجاهد الأفغاني عبد الرسول سياف رئيس الاتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان عن أهمية المعركة التي تدور الآن بين المجاهدين الأفغان وقوات الحكومة العميلة التي تسندها الدبابات الروسية. قال: إننا أمام معركة خطيرة تعني خسارتها خسارة الإسلام في أفغانستان وفي باكستان نفسها. قال بالنص: لو انتهى هذا الجهاد «لا سمح الله» بفشل المجاهدين فإن باكستان تموت خلال أسبوع. إن الدب الروسي سوف يضغط من الغرب، والفيل الهندي سوف يضغط من الشرق، وسوف تختفي باكستان.

شرح المجاهد حقيقة أبعاد المعركة فقال: إن أمريكا لا تريد بقاء روسيا في أفغانستان، ولكنها كذلك لا تحتمل قيام حكم إسلامي في أفغانستان، وعندما اتضح أن المعركة الدائرة أخذت تسفر عن قيام حكم إسلامي، بدأوا جميعا يتداركون الوضع، وبدأ التنسيق في البحث عن بديل آخر غير مسلم، وبدأت كتابة سيناريو جديد، وبرز اسم «ظاهر شاه» والمطلوب في السيناريو الجديد إجهاض الثورة الإسلامية أساسا، ومن الأمور التي تثير الأسف أن المسلمين لا يدركون خطورة المعركة ولا يعرفون أبعادها، وبالتالي فإنهم لا يتفاعلون معها كما يجب.

سئل عبد الرسول سياف.. هل غياب القضية الأفغانية إعلاميا هو السر في عدم التفاعل معها؟ فقال أنا لا ألقي الذنب على غيبة الإعلام الأفغاني عن الساحة العربية والإسلامية، ولكني ألقيه على غيبة الإعلام العربي الإسلامي عن ساحات الجهاد، وتساءل المجاهد لماذا لا يوجد صحفي مسلم يأتي إلينا ويعرض علينا أن نوصله الى جبهات القتال ليشهد فجر الإسلام من جديد.

إن غزوات المسلمين الأوائل تعيد نفسها في أفغانستان، وليس هناك مسلم واحد يسجل هذه الأحداث!

إن الصحفي في بلادنا الإسلامية يرحل بكاميراته آلاف الأميال ليتابع لاعب كرة يسجل هدفا.. ألا يستطيع هؤلاء الصحفيون تسجيل تدمير عشر دبابات بأيدي مجاهد مؤمن يقف بين رصاص كالمطر...

أذكر أنني قلت للصحفيين بالرياض كيف تعتبرون أنفسكم صحفيين مسلمين بينما أنتم عالة على أعدائنا في أخذ أخبار أمتكم الإسلامية؟ قال لي بعضهم.. والله أنتم ما تخبروننا عن أوضاعكم وأحوالكم، وهذا الكلام يشبه من يبعث خطابا إلى مريض في المستشفى يسأله لماذا لا يخبره عن أحواله. أيهما يذهب

إلى الآخر السليم يعـود المريض أو المريض هو الذي ينبغي عليه آن ينهض من فراشه ويذهب إلى السليم ويخبره عن أحواله.

لماذا لا تأتون إلينا إذا لم تستطيعوا الوقوف معنا في خنادق القتال، فلا أقل من تسجيل موقفنا نحن في الخنادق..

أليس عارا أن نقرأ في صحفنا الإسلامية خبرا عن إسقاط طائرة بأيدي المجاهدين وتحت الخبر تكتب وكالة فرانس برس أو رويتر»؟!!

أين اليقظة العربية؟ أين الاكتراث العربي؟ إن الأخوة الإسلامية مهزومة في هذه القضية الكبيرة! وانهزامها ليس جديدا، فقد سبقته خيانات جسيمة في أحوال مشابهة. والواقع أن دحرجة الإسلام سياسيا وثقافيا. تمخضت عن ارتداد ملحوظ في إعلان بعض الأحزاب عن «علمانيتها» وفي رفض حكومات شتى للانتماء الإسلامي.. ولولا الوجل من علامات الحياة التي ينتفض بها الكيان الإسلامي بين الحين والحين لأعلنت بعض الحكومات العربية انسلاخها عن الإسلام جملة وتفصيلا..

ماذا كسبوا من هذا النفاق؟ كان الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر يقود مقاومة إسلامية باسلة ضد اليهود والإنكليز، نعم كان الوجه الإسلامي سافرا ضد الوجه اليهودي المكشوف المتبجح! كانت صيحة الله أكبر تقود المقاومة، وتنشق بها حناجر المجاهدين الذين ينشدون خير الدنيا والآخرة..

إن هذه الصيحة هي التي لم يعرف غيرها ثوار الجزائر في مقاتلتهم للاحتلال الفرنسي الحقود، وقد فدحت التضحيات ولكنها حققت النصر، ودحر الله الصليبية الجديدة، ولم يكن لجند الإسلام سلاح يوم بدأت المعركة! إلا ما يأخذونه من أيدي أعدائهم.. ثم رأى «عرب الشرق الأوسط» ـ وبئسما رأوا ـ أن يدعوا التكبير، وأن ينحازوا بعيدا عن الإسلام، وأعلنت جبهة التحرير أنها سوف

تقيم يوم تنتصر دولة علمانية! وتتابعت الخسائر! وتتابعت الانسحابات! وأطبقت على الجماهير المسكينة حيرة بالغة.

الإسلام .. وفلسطين

لقد شعرت بقلق حقيقي على مستقبل فلسطين! قد تقول: هل جدّ جديد؟ وأجيب: كلا وليس ثم أسوأ مما وقع!

مبعث قلقي أني رأيت الشعور الديني عند اليهود يقوى، وعند قومي يخفّ، وأن السبت يزداد قداسة على حين تهاوى شعائر الإسلام في أقطار شتى، وأن القوم يتحدثون عن حدودهم التوراتية ونحن لا نعرف آفاقنا القرآنية! وأن اليهودي يلبس قلنسوة صلاته في أي عاصمة، ويمضي في شموخ إلى كنيسته بينما يتخفف أكثرنا من عبء الصلاة المكتوبة. وأن التراث عندهم أصالة وعندنا رجعية! إسرائيل عندهم دين، وفلسطين عندنا عروبة! ومعركة تدور على هذه الأسس تثير الفزع في ضمير المسلم..

إن أمريكا تؤيد اليهود لأسباب دينية، وقد كان لورد بالفور نصرانيا متحمسا. ومؤمنا بتعاليم العهد القديم عندما أعطى اليهود حق احتلال فلسطين... والدول العظمى التي قالت: خلقت اسرائيل لتبقى ــ وبينها روسيا ــ إنما تتحرك بضغائن ضد العروبة والإسلام...

وقد تصدر هيئة الأمم في هذه الأيام قرارا جديدا بتأييد حق العرب في فلسطين. أو بتعبير أصرح حق إقامة دولة لهم على جزء من أرضها.. وسيكون القرار كعشرات غيره حبرا على ورق، ولن يعود الحق الى نصابه إلا في حالة واحدة. أن يعرف العرب الطبيعة الدينية لقضيتهم ومعركتهم ومصيرهم فيردّوا على

العدوان اليهودي بدفاع إسلامي . إن راية «العلمانية» لن تكسب خيرا فهل نرجع الى الإسلام عقيدة وجهادا. لا سياسة وشعارا؟

لعل أول ما كسبه العرب من تجاهل الإسلام هذا التفرق الشائن الذي سر أعداءهم وأرخص مكانتهم العالمية. إن الإسلام الضمان الوحيد للوجود العربي في هذه الدنيا. قبل أن يضمن لهم في الآخرة جنة عرضها السموات والأرض.. والعرب عندما يزهدون في الإسلام فسوف يعودون قبائل متحاقدة لا تزن عند الله ولا عند الناس جناح بعوضة..!

ليس أمام العرب إلا توبة سياسية واجتماعية، يعرفون بها رسالتهم، ويبصرون غايتهم، ويسترجعون مجدهم ويكبتون عدوهم... إن العرب يبلغون 15٪ من مجموع الأمة الإسلامية، إلا أنهم كما قلت في بعض كتبي «دماغ الإسلام وقلبه» إذ الإسلام دين عربي الثقافة والقيادة.

ونجاح الاستعمار في فرض الارتداد عليهم هزيمة بعيدة الآماد رهيبة الآثار! ونحن موقنون بأن جماهير العرب أوفياء لدينهم حتى الموت، وأن المراد فرض الإلحاد عليهم بالسلاح! وتمكين سلطات مغتصبة من خذلان الإسلام في كل ميدان، وجعل العمل له تهمة! وجعل العمل ضده باب القبول والترقّي!! والجهد الآن قائم على تجريد العروبة من الإسلام، وتجريد كل قومية أخرى من الانتماء الإسلامي، وما درى أولئك الغادرون أنهم يحفرون للعرب ـ بهذا المسلك ـ مقبرة تواريهم إلى آخر الدهر...

وقد لاحظت في ركن قصيّ من النشاط الأدبي أن الطلاب لا يحفظون قصائد تتحدث عن أمجاد الإسلام، ولا عن أيام الله في تاريخ العرب..

حتى لو كلفوا بحفظ قصيدة للمتنبي تصف حروب سيف الدولة مع الروم فإن واضعي المقرر يتحاشون ذكر الأبيات التي تشير إلى الإسلام..

في قصيدة أبي الطيب :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

يحذف عن عمد قول أبي الطيب لسيف الدولة :

ولست مليكا هازما لنظيره   ولكنه الإسلام للشرك هازم!

وتنفيذا لهذه السياسة طُويت قصائد جياشة بالصدق واليقين لشوقي وحافظ ومحرم وغيرهم، وقد رأيت أن أستنفذ من أصابع الضياع قصيدة الشاعر محمود غنيم التي يناشد فيها العرب أن يصحوا، ويستثير في ضمائرهم نجدة الإسلام ـ قال نضر الله وجهه في قصيدته : «وقفةٌ على طلل».

مـا لي ولـلـنـجـم يـرْعـاني وأرعـاهُ   أمْسى كِلانا يـعـافُ الـغـمض جفْنَاهُ

لِي فـيكَ يـالـيْـلُ آهاتٌ أرددها   أوَاهُ لـو أجْـــدتِ المحزونَ أوَّاهُ

لا تحسبنّي مُحِبّاً يشْتكي وصَباً   أهْوِنْ بما في سبـيـلِ الحبِّ ألقاهُ

إنّي تـذكـرّت ـ والـذكْرى مؤرّقةٌ   مجْدًا تـلـيدًا بأيْدينا أضَعْناهُ

أنّى اتّجَهْتَ إلى الإسْلام في بَلَدٍ   تَجِدْهُ كالطير مَقْصوصاً جَناحاهُ

ويْح العُروبة كانَ الكَوْنُ مَسْرحَها   فـأصْـبَـحَتْ تـتَـوارَى في زَوايَـاهُ

كَـمْ صـرَّفـتْـنـا يـدٌ كنّا نُصرّفُها   وبَـاتَ يـمْـلِـكُنا شعْبٌ مَلَكْنَاهُ

كَمْ بالعِراقِ وكَمْ بالْهِنْدِ ذُو شَجَنٍ   شَكـا فـردّدت الأهْـرَامُ شَكْوَاهُ

بَني العُمُومة إنَّ القُرْحَ مَسَّكُمُو   وَمسَّـنَـا، نـحْنُ في الآلام أشْبَاهُ

يـا أهْلَ يَثْرِبَ أدْمَتْ مُقْلتيَّ يَدٌ   بـدْريَّـةٌ تَسْـأل المصريَّ جَـدْوَاه(*)

الـدّينُ والضَّـادُ من مغْناكمُ انبعثا   فـطـبَّـقـا الشرْقَ أقْصاهُ وأدْنـاهُ

لسْـنـا نمدُّ لـكُـم أيْمانَـنـا صِـلـةً   لـكـنّما هوَ دَيْنٌ مـا قضَـيْـنَـاهُ

(*) من نصف قرن حلت بالمدينة المنورة مجاعة، فأسرعت السفن المصرية محملة بالقمح إلى نجدة البلد الطيب.. والشاعر يرى ذلك بعض ما يجب!

هلْ كانَ دينُ ابنِ عَدْنانٍ سِوى فلقٍ   شقّ الوجودَ وليل الْجَهْلِ يَغْشاهُ

سَلِ الحضارَةَ ماضِيهَا وحاضِرَها   هَلْ كانَ يَتَّصل العهدان لَوْلاهُ

هِيَ الحنيفَةُ عَيْنُ اللهِ تكْلَؤُها   فكلّمَا حَاوَلوا تشْويهَها شاهُوا

هَلْ تطْلُبونَ مِنَ المُخْتار مُعْجِزَةً   يكْفِيهِ شَعْبٌ مِنَ الأجْدَاثِ أحْياهُ

مَنْ وَحّدَ الْعُرْبَ حتّى كانَ واترُهم   إذَا رأى وَلَـدَ المَوْتورِ آخَـاهُ

وَكَيْفَ كانوا يدًا في الحَرْبِ واحدةً   مَنْ خَاضَها باعَ دُنْيَاهُ بأُخْرَاهُ

وَكيْفَ ساسَ رُعاةُ الإبْلِ مَمْلَكَةً   ما سَاسَها قَيْصرٌ مِنْ قَبْلُ أوْ شاهُ

وكيفَ كانَ لَهُمْ عِلْمٌ وَفَلْسَفَةٌ   وَكَيْفَ كانتْ لهمْ سفْنٌ وَأمْواهُ

سنُّوا المُسَاوَاةَ لا عربٌ ولا عَجَمُ   ما لامرئٍ شرفٌ إلّا بتقواهُ

وقرَّرتْ مبْدأ الشورى حكومتُهُمْ   فَليسَ لِلفرْدِ فيها ما تَمَنَّاهُ

ورحَّبَ النّاسُ بالإسْلامِ حِينَ رأوْا   أنَّ السَّلامَ وأنَّ العَدْلَ مَغْزَاهُ

يا مَنْ رأى عُمراً تكسوهُ بُرْدَتُهُ   والزيْتُ أُدْمٌ لَهُ والكوخُ مأوَاهُ

يَهْتَزُّ كسْرى على كُرْسِيِّهِ فرقاً   مِنْ بأْسِهِ، ومُلوك الرّومِ تَخْشَاهُ

سَلِ المَعَاليَ عنَّا إنّنا عَرَبٌ   شِعارُنا المَجْدُ يَهْوَانا ونَهْوَاهُ

هِيَ العُروبَةُ لَفْظٌ إنْ نطقْتَ بِهِ   فالشرقُ والضّادُ والإسْلام مَعْنَاهُ

استرْشدَ الغَرْبُ بالماضِي فأرْشدَهُ   ونَحْنُ كانَ لَنَا ماضٍ نَسِينَاهُ

باللهِ سَلْ خَلْفَ بَحْرِ الرّومِ عَنْ عَرب   بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهو

فَإنْ تَراءتْ لَكَ الْحَمْرَاءُ عَنْ كَثَبٍ   فسائِلِ الصَّرْح أيْنَ المَجْدُ والجَاهُ

وانْزِلْ دِمَشْقَ وسائِلْ صَخْرَ مَسْجِدِها   عَمَّنْ بَناهُ، لَعلَّ الصَّخْرَ يَنْعَاهُ

وَطُفْ بِبَغْدادَ وابْحَثْ في مَقَابِرِها   علَّ امْرأً مِنْ بَنِي العَبَّاسِ تَلْقَاهُ

هَذِي معَالِمُ خُرْسٌ كلُّ وَاحِدَةٍ   منهنَّ قامَتْ خطيباً فاغِراً فَاهُ

إنّي لأشْعُرُ إذْ أغْشَى معالِمهُم   كـأنّني راهِبٌ يَغْشى مُصَلّاهُ

اللهُ يَعْلَمُ ما قلّبتُ سيرتَهُمْ   يَوْماً، وأخْطأَ دَمْعُ الْعَيْنِ مَجْراهُ

أيْنَ الرَّشيدُ وَقَدْ طافَ الغَمامُ بِهِ   فَحِينَ جَاوَزَ بَغْداد تَحَرَّاهُ

مُلْكٌ كَمُلْكِ بَني التّاميزِ ما غَرَبَتْ   شَمْسٌ عليه، ولا بَرْقٌ تَخَطّاهُ

ماضٍ نعيشُ على أنْقَاضِهِ أُمَماً   وَنستَمِدُّ القوى مِنْ وَحْيِ ذِكْرَاهُ

لا درَّ درُّ امْرِئٍ يطْري أوَائِلَهُ   فَخْراً، ويطرُقُ إنْ ساءلْتَهُ ماهُو؟

مَا بالُ شَمْلِ بَني قحْطانَ مُنْصَدِعاً؟   ربّاهُ أدْرِكْ بَنِي قحْطانَ رَبّاهُ

عَهْدُ الْخِلافَةِ في البسْفورِ قَدْ دَرَسَت   آثارُهُ، طَيَّبَ الرَّحْمَنُ مَثْوَاهُ

عَرْشٌ عَتِيدٌ عَلى الأتْرَاكِ نَعْرِضُهُ   ما بَالُنَا نَجِدُ الأتْرَاكَ تَأْبَاهُ

أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ فدّاهُ مُعَاوِيَةٌ   وَكَيْفَ راحَ عَليٌّ مِنْ ضَحَايَاهُ

غالَ ابْنَ بِنْتِ رَسُول اللهِ ثمَّ عدَا   عَلَى ابْنِ بِنْتِ أبي بَكْرٍ فَأرْدَاهُ

لمَّا ابتغى يدها السفاح أمهرها   نهرا من الدم فوق الأرض أجراهُ

مَا لِلْخِلافَةِ ذَنْبٌ عِنْدَ شانِئِهَا   قَدْ يَظْلِمُ السَّيْفَ مَنْ خَانَتْهُ كَفَّاهُ

الحُكْمُ يسلسُ باسْمِ الدّينِ جَامحُهُ   وَمَنْ يَرُمْهُ بِحَدِّ السيْفِ أعْياهُ

يَارُبَّ مولىً لهُ الأعْنَاقُ خَاضِعةٌ   وَراهِبُ الدّيْرِ باسْمِ الدّينِ مَوْلاهُ

إنّي لأعْتَبِرُ الإسْلامَ جَامِعَةً   لِلشرْقِ لا مَحْضَ دينٍ سنَّهُ اللهُ

أرْوَاحُنا تَتَلاقَى فيهِ خَافِقَةً   كالنَّحْلِ إذْ يَتَلاقَى في خَلايَاهُ

دُسْتُورُه الْوَحْيُ والمُخْتَارُ عَاهِلُهُ   والمُسْلِمُونَ ـ وإن شتُّوا ـ رعَايَاهُ

لا همَّ قَدْ أصْبَحَتْ أهوَاؤنَا شِيَعاً   فامْنُنْ عَلَيْنَا بِراعٍ أنْتَ تَرْضَاهُ

رَاعٍ يُعِيدُ إلى الإسْلامِ سِيرَتَهُ   يَرْعَى بَنِيهِ وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهُ

هذا الأدب الحاني على الإسلام المشيد بأمجاده يجب أن يدرج في أكفانه. !

الأدب الذي يرد للعرب رشدهم، ويبصرهم برسالتهم، ويحدوهم إلى أدائها لا يجوز أن يحيا! الأدب المطلوب هو أدب التسالي والمجون، أدب الضياع والإدمان.

الموضوع الأثير الجذاب هو الجنس، الجريمة، الضحك، الدعاية للمجتمعات الأوربية والأمريكية، كل ما يفصلنا عن ماضينا الإسلامي، وتاريخنا العريق...

فهل الأمر كذلك وراء حدودنا؟ إنني أسوق هذه النماذج المنوعة ليعلم التائهون أين هم في دنيا الناس!

كتب الأستاذ «عبده مباشر» في الأهرام هذه الكلمة: «خلال زيارتي لأوربا، أتيحت لي فرصة مشاهدة فيلم «الصقر» الذي يلعب دور البطولة فيه الممثل العالمي الإيطالي المولد فرانكو نيرو والفيلم من إنتاج يوغسلافي وتدور أحداثه أثناء وقوع الصرب في دائرة الامبراطورية العثمانية.

«الصرب الآن إحدى أهم الجمهوريات التي تتكون منها دولة يوغسلافيا» والفيلم من البداية للنهاية لا هدف له إلا تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وقصته ببساطة تصور هجوما قام به جنود أتراك إحدى القرى الصربية بعد أن خرج عدد من الرجال للصيد من بينهم البطل ستراهينا «فرانكو نيرو» ويقتحم الجنود بيت ستراهينا ويستولون على زوجته الحسناء، وبعد عودة ستراهينا يحاول استرداد زوجته بأي طريقة. ويواصل بذل المحاولات والجهد حتى يوفق..

ومشهد البداية يمثل [illegible] البطل ممتطيا صهوة جواده مع عدد من الأصدقاء في رحلة صيد ومعه صقره المدرب على اقتناص الفريسة.. وبعد أن يغادر هذا العدد من الرجال القرية يبدأ الجنود الأتراك المسلمون في الهجوم عليها وقتل الشيوخ والأطفال واغتصاب النساء والاستيلاء عليهن بما في ذلك زوجة

البطل الغائب التي ترتدي ثيابا بيضاء، وطوال فترة الهجوم والقتال نسمع كلمات وجملا عربية من بينها «الله أكبر» ـ «يا الله» .. وكأن المخرج ينقل للمشاهد من البداية أن الفضائل والنبل والطهارة من نصيب أبناء الصرب، فالفروسية والصيد من الفضائل والأعمال النبيلة والزي الأبيض رمز للطهارة.. أما الرذائل فهي من نصيب الأتراك المسلمين الذين يهاجمون قرية بعد أن غاب عنها حماتها، ويقتلون الشيوخ والنساء ويستولون على عدد من النساء ويغتصبون عددا آخر..

ثم ينتقل المخرج ليصور لنا مشهدا للجنود الأتراك مع قائدهم الذي يسمى «علي» فالقائد يجلس ليدخن الحشيش، أما الباقون فإما أنهم يدخنون مثله أو يتسولون منه الحشيش.. وللحصول على قطعة من الحشيش لا بأس من التوسل والرجاء والركوع.

وهكذا ببساطة يصبح كل المسلمين القادة والجنود والناس قتلة ومغتصبي نساء بل وحشاشين بلا كرامة..

ويواصل الفيلم رحلته، حيث يضطر القائد إلى قتل رفيقَيْ طريقه غدرا، وهو ذاهب للقاء ستراهينا.. ومشهد القتل لا يعطي انطباعا واضحابالغدر فقط بل يكرس ارتباط الغدر بالخلق الإسلامي [illegible] القاتل، يقتل وهو يقول « أشهد أن لا اله إلا الله » « الله أكبر » ، ويغمد سيفه في الضحية الأولى .. ثم ينتقل ليغمد سيفه في الضحية الثانية ، وهو يواصل نفسس القول ... ثم يمسح الدماء من سيفه وهو سعيد مرددا نفس القول، والمخرج يربط عمدا بين القتل والغدر، وبين الشهادة والتكبير، حتى ينطبع في ذهن المشاهد هذا الارتباط، مثلما ارتبط هجوم الأتراك المسلمين على القرية يقتلون أهلها وهم يرددون «الله أكبر».

ويقينا فإن هذا الفيلم ليس العمل الوحيد، ولن يكون الأخير في سلسلة الأعمال التي تستهدف تشويه صورة الإسلام والمسلمين.

وأمام هذه الحملة التي لم تتوقف يبقى السؤال.. وما العمل؟»

هذا دور «الفن» في ضرب الإسلام، وهاك مثلا من دور «الدبلوماسية» في الهجوم على أرضه، واستباحة جماهير المؤمنين فوقها، أنقله من العدد الخاص الذي أصدرته مجلة «روز اليوسف» احتفالا بمرور ثلاثين سنة على حرب التحرير..

وقد بدأ الكلام بوصف مسلمي الجزائر في مذكرات كتبها بيده «وليام شالر» القنصل العام الأمريكي في الجزائر بين عامي سنة 1816، سنة 1824. والوصف ناضح بأن المسلمين في هذا البلد نماذج حسنة للطيبة وحسن الخلق والبعد عن العدوان.

وندع الحديث للقنصل الأمريكي... يقول القنصل:

«إن المعلومات التي وصلت إلينا منذ العصور الغابرة تتهم سكان هذا البلد بعدم الاستقرار والخداع، وهذا الاتهام قد يوجد ما يبرره في الوقت الحاضر، ولكن هؤلاء السكان أبعد ما يكونون عن البربرية التي يصف بها البعض الجزائريين، فإن في سلوكهم لياقة ومجاملة، وأنا قد وجدتهم في المعاملات اليومية - دائما - مهذبين ومتمدنين وإنسانيين، وأنا لم أكتشف فيهم حتى أعراض التعصب الديني، أو الكره للأشخاص الذين يدينون بدين آخر غير دينهم ...

إنهم يدينون بالإسلام ويقومون بكل مواظبة وإخلاص بالواجبات التي يفرضها عليهم دينهم، ولكن بدون مباهاة أو تصنع، ولا يضمرون عداوة للأشخاص الذين يسلكون طريقا آخر للحصول على رضا الله...»

المدهش أن هذا القنصل بقي على حقده القديم، فلم يفكر في إصلاح نفسه بعد أن شاهد ما شاهد من سماحة المسلمين واعتدالهم! إن المواريث الكامنة فيه كانت أعمق شرا، ومن ثم فقد درس أنجح الخطط لاحتلال الجزائر بعد أن تفقد حصونها، وعرف نقط الضعف والقوة فيها... ترى كيف قدر على ذلك، ومن الذي يسر له هذه الفرص؟

يظهر أن المسلمين كانوا يحسبون شعب الولايات المتحدة بريئا من العلل التاريخية الأولى، وأن ظفره بحريته بعد حرب ضروس مع انجلترا سيجعله كارها للاستبداد والعدوان!

وكان المسلمون سذجا في هذا الظن! فقد جدّد الأمريكان تاريخ الرومان حذوك النعل بالنعل، ولم يتركوا خطة لضرب العرب والمسلمين إلا سلكوها...

فلنذكر الوثيقة التي كتبها ممثل الولايات المتحدة في الجزائر لإرشاد الهاجمين من وراء البحار على أخطر الطرق وأجداها. قال:

«.. كان نزول الجنود في جميع الحملات العسكرية التي شنت على مدينة الجزائر من البحر، يتم في الجانب الشرقي من الخليج، وهذه بالتأكيد غلطة لا تغتفر، وتعود الى جهل بشاطئ البلد وطبوغرافيته، حيث أن جميع وسائل الدفاع قد تركزت في هذه المنطقة...

ومن الواضح أن جيشا يمكنه النزول في خليج سيدي فرج الجميل دون أن يجد عقبات تذكر، ومن هناك يمكنه في مرحلة واحدة أن يصل الى الهضاب التي تسيطر على موقع قصر الامبراطور. وعندئذ سوف لا يجد عائقا في طريقه نحو هذا الحصن والاستيلاء عليه بالقوة، إما بتسلق أسواره أو بنسفها بالألغام»!!

يكشف شالر المزيد من هذه المعلومات الخطيرة ويقول: «متى سيطر الجيش على هذا الحصن وثبت مدفعية قوية في الهضاب التي تشرف عليه، سيطر على الموقف.. وإنزال قوات في سيدي فرج لا بد أن يرافقه ظهور قوات بحرية في وسط الخليج للتمويه على العدو، وعقب ذلك تستسلم المدينة أو تؤخذ عنوة..»!! وهذا بالضبط ما فعلته قوات الاحتلال الفرنسية..

وهكذا يكشف التاريخ ان الولايات المتحدة الأمريكية وكانت دولة ناشئة في ذلك الحين هي أول من قدم مساعدة «حيوية» لفرنسا في احتلالها.. للتراب الوطني الجزائري.»

أحوال اليوم وآمال الغد

مع اضمحلال الدولة الإسلامية خلال القرون الأخيرة انفرد التبشير الصليبي بقارة إفريقية، ورسم سياسة دقيقة للاستحواذ عليها..

كان الإسلام، الدين السماوي الأول في هذه القارة، وكان يكتسب بثبات أرضا جديدة من الوثنية السائدة، فلما دخل الأوربيون قرروا لفورهم تغيير هذا الوضع، والطريف أنهم عدُّوا أنفسهم مكتشفين لبقاع شتى كان العرب قد عرفوها من قبل، فالبحيرات العظمى التي ينبع منها النيل كانت معروفة للجغرافيين العرب..

غير أن المستعمرين الجدد لما وصلوا اليها خلعوا عليها أسماءهم فإذا نحن أمام بحيرة «فيكتوريا» وبحيرة «ألبرت».. الخ وهذه البحيرات تدرس بأسمائها الجديدة في البلاد العربية لطلاب المراحل الدنيا والعليا..!

واقتسم الأوربيون القارة الغفل وشرعوا في تنفيذ براجمهم الاستعمارية والتبشيرية، رأوا ـ تمشيا مع اتجاه العصر ـ أن يحوِّلوا المستعمرات إلى دول حديثة فأنشأوا عشرات من الحكومات المستقلة(!) وراعوا في تكوينها تقطيع الأواصر الإسلامية، وتشتيت أجزائها، وجعل السلطة بأيدي خريجي المدارس التبشيرية

وحدهم، وجعل الكثرة المسلمة تذل وتقل على مر الأيام.. بل لقد وضعت خطة عامة لتقويض الإسلام في إفريقيا كلها مع نهاية القرن العشرين!!

ولكن الأمور جرت على نحو آخر، فإن قرى كاملة، وقبائل بأسرها أخذت تعتنق الإسلام، وتهجر وثنيتها الأولى...

وكنت في مجلس يضم عددا من رؤساء الجامعات العربية قرأوا ما نشرته جريدة «الموند» الباريسية تعليقا على هذه الانتكاسة التبشيرية! قالت الجريدة في غيظ: كيف يقع هذا؟ وكيف يلقى الإسلام هذا القبول؟ ثم تتجه إلى الزنوج الذين أسلموا موبخة لهم على إسلامهم، قائلة: أنسي هؤلاء ما فعله المسلمون الأولون بآبائهم؟ كانوا يخطفونهم ويبيعونهم عبيدا؟ فكيف يدخلون في هذا الدين؟

ونحن لا نستغرب من الجريدة الفرنسية أن تتهمنا نحن المسلمين بما كان يفعله الأوربيون في إفريقيا خلال القرون الوسطى، لقد ظلوا خمسمائة عام يختطفون السود من غرب افريقية، ويشرفون على تجارة عالمية للرقيق مفعمة بالمآسي، إن الجريدة التي صدرت في أواخر يناير سنة 1985 تذكرنا بالمثل القديم: رمتنا بدائها وانسلت! ترى أيدري المسلمون ما يقع؟

إن بقاء الإسلام ونماءه في بقاع كثيرة لا يعودان إلى نشاط الأتباع ويقظتهم... بل يرجع ذلك إلى سلامة عقائده، ويسر تعاليمه، وتلاقيه مع فطرة الله في الأنفس والآفاق، ولكن غيابنا نحن المسلمين عن معترك المذاهب والاتجاهات العالمية له آثار سيئة، ان نجونا منها اليوم فلن ننجو في الغد، وحسابنا عند الله عسير.

أمامي الآن معلومات قليلة عن جمهورية «رواندا» التي هي واحدة من بضع وخمسين دولة أنشأها في إفريقية الاستعمار الجديد... عدد السكان نحو ربع

المليون! في سنة 1900 لم يكن بها نصارى، وحسب الإحصاء المعلن يبلغ عددهم الآن 50 ٪ من تعداد السكان، على حين يبلغ المسلمون ـ كما يقال ـ 7 ٪ والباقي وثنيون..

وأنا شديد الريبة في هذه الاحصاءات؛ لأني لمست تزويرها في أقطار كثيرة، واستيقنت أن عدد المسلمين أكبر وعدد غيرهم أقل، ولا يعْنيني ذلك الآن، وإنما الذي استوقفني أن ثلث المبعوثين للتعلم في الخارج ظفر بهم الاتحاد السوفيتي، والباقون موزعون على إيطاليا وكندا وسويسرا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وزائير والسنغال.. الخ.

وهذه النسب تفسِّر لنا لماذا تحوّلت دول شتى غداة استقلالها إلى الشيوعية، ولماذا ترتبط دول أخرى بالغرب، وتفتح أحضانها لدعاياته وفلسفاته، ولماذا تبقى اللغة العربية في عزلة، ويبقى الكتاب العربي قليل القراء.. والإسلام هناك محروم من جملة وسائل الإعلام، وبديهي أن تكون علاقة المسلمين في «رواندا» شبه معزولة عن العالم الإسلامي، وقد استوقفني أمر آخر ذو بال، أن المسلمين هناك يعانون من خلافات وانقسامات شديدة! واستنتجت أن الخلاف بين الصوفية والسلفية أو بين السلفية والمذهبية ومن يدري؟ لعل الاشتباك مع الجهمية والأشاعرة.

قال الراوي: وقد افتتح أخيرا ناد تبشيري في ضاحية تسكنها أغلبية مسلمة وأطلق على النادي اسم «ناد رفيقي»! قلت في نفسي: لعل الذين افتتحوه طامعون في أن يصلحوا ذات بيننا!! ما أفقرنا الى الوعي...

مستقبل الإسلام رهين ـ بعد مشيئة الله ـ بجهود أبنائه لا بإرادة أعدائه... على جبهتهم وحدها يكون الفصل في هذا النزاع الطويل، وتتحدد وجهة الإنسانية...

المسلمون ما انهزموا قط، ولن ينهزموا أبدا إلا لخلل في صفوفهم هم...

وقد أراد الله أن يكون العرب رءوسا بالإسلام، قادة برسالته، فإذا عاودهم الحنين إلى جاهليتهم، وآثروا الانتماء الى قوميتهم، فنحن ننذرهم، بقول الحق ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَٰلِكَ قَدِيراً﴾[98].

إن الأجناس التي دخلت في الإسلام نجدت العرب في فلسطين، وحررت بيت المقدس يوم غرق العرب في خلافاتهم وأحاطت بهم مآربهم وخطاياهم ومكنوا الصليبيين الأوائل من اجتياح البلاد والعباد وأجروا مذابح تقشعر منها الجلود...

ويبدو أن العرب يقترفون ذات الأخطاء في هذه الأيام، ويذكرون قوميتهم وينسون عقيدتهم وستجعلهم الأقدار أحاديث إن لم يسرعوا بالمتاب...

وكلمة أخرى نقولها للعرب والمسلمين: ما هذه الجهالة الفاحشة بشئون الكون والحياة؟ وكيف تخدمون دينكم وأنتم صرعى، تخلّف علمي مذهل؟؟

إن اللص إذا كان عارفا بأسرار البيت، ومرافقه ومداخله، ومخارجه، وغرفاته، وسراديبه فهو أولى به من رب البيت الذي يعيش فيه دون أن يدري شيئا من ذلك كله...

إن الله أسكنكم هذه الأرض كما أسكن غيركم فكيف يسخّر غيركم قواها، ويهيمن على مداها وأنتم في أماكنكم لا تصنعون شيئا؟ ماذا يشغلكم؟ التسبيح والتحميد؟ الله يعلم أنكم عن طاعته مصروفون!

إن هذا الطمس عقوبة إلهية على تناول الدين قشورا لا حقائق، وعلى تحريف الكلم عن مواضعه، لقد أسقطتم الأخلاق عن عرشها فأعيدوها إلى

(98) سورة النساء 133.

مكانتها، وتعلّموا التمام لا النقص، والجمال لا التشويه! إن الإنسانية انضباط لا فوضى، والإسلام حكمة ونظام لا أهواء جامحة..

يقال للدّابة حين لا يربطها حبل، ولا يقفها قيد، إنها سائبة، أو حبلها على غاربها، فهي تنطلق كيف تشاء! فماذا يقال للجماعة حين لا تربطها كلمة، ولا تضبطها عقيدة، ولا تقفها حدود من أخلاق أو تقاليد؟ إن الشاكين من هذا الوضع سمَّوْا ذلك تسيبا! والسيْب أو التسيُّب كلمات عربية صحيحة، ولكنها ليست معالم عربية، ولا عرفا موروثا، وعندما نزنها بموازين الدين نجد كتابنا يعدُّها من معالم الفسوق والعصيان. وتدبر قوله تعالى ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾[99] إن الجملة الأخيرة تدل على أن الأمر الفرط، أو الوضع السائب، أو المجتمع المحلول يجيء ثمرة غفلة القلب، واتباع الهوى، سواء أكان ذلك في أحوال النفس أم في أخلاق الجماعة!

والحق أن الأمة الإسلامية أبعد الأمم عن هذا الانفراط في عقدها، أو التسيّب في شئونها، أو الفوضى في علاقاتها، لو أنها وفيّة لدينها، وقائمة على نهجه.. ويبدأ ذلك كله باحترام الكلمة، وإحاطتها بنطاق من الجدّ والصراحة، وفي الحديث الشريف «إذا حدثك أخوك بكلمة ثم التفت فهي أمانة»! وفي الحديث أيضا «المجالس بالأمانات» ويقول الله سبحانه في وصف المؤمنين ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾[100].

إن المجتمع المؤمن متماسك بعزائم الرشد، متعارف على حدود الله. وحقوق الناس وربما استهان البعض بكلمة لغو، أو تورط في عمل رديء، بيد أن هذا العوج لا يطول أمده، أو تتسع دائرته، لأن الإسلام الصحيح يرفض بشدة تسيب القطيع. ترى هل الموظف الذي يقول لصاحب الحاجة: تعال غدا، فإذا

---

(99) سورة الكهف 28.

(100) سورة المؤمنون 8.

جاء الغد كرر التسويف مثنى وثلاث بأعذار شتى، أتظن ذلك امرءا يعرف قيمة الكلمة أو قيمة الوقت أو قيمة الوظيفة التي يشغلها ؟ أم هو امرؤ سائب.

عندما اقترحت بنت شعيب على أبيها أن يستأجر موسى ليدير أعماله قالت في تعليل اقتراحها ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[101] أي أنه يجمع بين القدرتين العلمية والخلقية. أما يوسف الصديق فعندما رشح نفسه لإدارة الأموال وشئون التموين، فقد اكتفى بذكر خبرته ومهارته فقال ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[102] وكأنه ترك لماضيه الطاهر أن يشهد له بالاستقامة والشرف...

ونحب أن نفرق بين نوعين من مراتب الإحسان والعظمة النفسية؛ هناك رجل راشد يعرف الصواب ويستمسك به، وهناك رجل يضم إلى ذلك تدريب الناس على الحق واقتيادهم به، إنه راشد ومرشد! هناك رجل صالح يتقي الله ويحرص على أداء حقوقه، وهناك رجل يضم إلى ذلك غرس أعواد التقوى في المجتمع ورعايتها حتى تزهر وتثمر، إنه صالح مصلح! الصنف الثاني أعظم درجة من الصنف الأول، ولأمر ما جعل الله الإمام العادل أي الحاكم الأمين أول من يظلّهم الله بظلّه يوم لا ظل إلا ظله..

إن الإدارة الناجحة النزيهة هي سيدة الأعمال الصالحة؛ لأنها تمكين للخير في الأرض، ونقل له من عزلة الصوامع إلى ضجيج الحياة ومعترك المعايش، إنها صلاح يتعدّى صاحبه إلى غيره، ويتحول به الحق من فكر الى واقع...

والحضارة الحديثة من أنجح الحضارات في فن الإدارة، فهي تضع الخطط وترقب التطبيق وتسد الثغرات، وتتعرف الأخطاء، وتحصي الوقت، وتجند المواهب، ولا تترك شيئا للمصادفات، أما نحن العرب والمسلمين، فأصحاب

---

(101) سورة القصص 26.

(102) سورة يوسف 55.

علل شتى في فن الإدارة ، ولا أدري لماذا فهمنا الصلاح على أنه العبادات المحضة؟ هذا تحكير منكر للعموم الشامل الذي قال الله فيه **﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** **﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[103].

إن العمل الصالح واسع الدائرة إلى حد يشمل كل شيء في الحياة تباشره باسم الله، فالمفكر بعلمه والطبيب بسماعته والمدير أمام ملفاته والمهندس أمام أجهزته والزارع المنحني على أرضه يستثمرها، والصانع العاكف على آلاته يحركها، أولئك جميعا في صلاة ما دامت قلوبهم مع الله، وجهدهم لأمة ترقب إنتاجهم وتنجح بنجاحهم.

(103) سورة الأنعام : 48.

الوحدة الإسلامية طريق طويل لكنه ضرورة حياة ...؟

أرى في صدر حديثي أن أنصف الانتماء الإسلامي الذي أحرجته الليالي وألحقت به هزائم شتى!

إن هذا الانتماء حقيقة شريفة القدر ممتدة الأثر، موصولة بأعظم تراث في الوجود.

فالقرآن هو الوحي كله من أزل الدنيا إلى أبدها، وكل ما خالفه مبتوت الصلة بالسماء.

ومحمد هو الإنسان الأول شرف سيرة وصدق بلاغ! وهو أعلى قمة في تاريخ الأحياء.

والإسلام هو المنهج الذي توارث النبيون الدعوة إليه وافتياد البشر فيه، فكيف يكون الانتماء إليه خفيض الصوت أو ذليل الجانب أو موضع الإهمال؟ وكيف تتقدمه أو ترجح عليه دعوات وطنية أو نزعات عرقية؟

إن الاستماع إلى هذه الدعوات والنزعات قطع أوصال المسلمين، وجعل الأمة الواحدة أمما متناكرة ومكن ذئاب الاستعمار العالمي من الانفراد بكل أمة والإجهاز عليها ماديا وروحيا.

وما نستعيد مكانتنا ونصون رسالتنا إلا إذا صححنا انتماءنا، وأصغينا إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[104].

إن اليهودي في أية قارة يرفع عقيرته بانتمائه الأثير لدينه، ويقول دون حذر أو خجل: أنا يهودي! حتى السيخ في هذه الأيام رأوا أن يكون لهم انتماؤهم الخاص بهم.

فهل الانتماء الإسلامي وحده هو الذي يقال في خفوت؟ ويرسل في وجل؟ لماذا يعامل الحق بهذه الخسة؟ وكيف نرضى الدنية في ديننا؟

إن العمل للوحدة الإسلامية شرف باذخ، ومجد شامخ، ويجب على العرب قبل غيرهم من الأجناس التي تكون الأمة الإسلامية الكبرى، أن يدركوا هذه الحقيقة وأن يربطوا ولاءهم بدينهم لا بجنسيتهم، وأن يستضيئوا في نهضهم بشرائع الإسلام وشعائره؛ لا بالفضلات التي يلتقطونها من موائد الغرب أو الشرق!

وليعلموا أن أعداءهم قد بيتوا النيات على الخلاص منهم، وأن التهام فلسطين تمهيد لما وراءه، وأن المؤسسات الدولية أعجز من أن تنصفنا لو أرادت فكيف وهي لا تلقي لنا بالا؟ لقد آن الأوان لنصحح انتماءنا ومسيرتنا..!

على أن هذا التصحيح لا يجوز أن يكون إثارة عاطفية عشواء، بل ينبغي أن ندرس بأناة الأسباب التي جعلتنا في العالم الثالث أو الرابع بعد أن كنا وحدنا العالم الأول دهرا طويلا..

إنها أسباب كثيرة، ثقافية واجتماعية وسياسية! وسأتناول هنا الجانب الثقافي لأن البعض يغفل عن خطورته.

---

(104) سورة الأنبياء 92.

ورأيي أن الثقافة التي آلت إلينا في القرون الأخيرة كانت ضحلة آسنة لا في مجال المعرفة الدينية وحدها، بل في مجال الأداء الأدبي كذلك، وأن هذه الثقافة كانت أعجز من أن تصنع أمة تنهض برسالتها، وتخدم كتاب ربها وسنة نبيها.

كانت ثقافتنا في العصور الأولى تصنع أجيالا عارمة، قادرة على المحو والإثبات، تحترم الحقائق وتعشق الفضائل، تضع خريطة الدنيا أمام عينيها، وتنظر اليها كما ينظر لاعب الشطرنج في رقعته ينقل أحجارها كيف يشاء!

لقد كان أبو الطيب يعرف المجد فيقول:

ولا تحسبن المجد زقا وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وكان أبو تمام يصف أغراض الشعر في عصره فيقول:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بغاة العلا، من أين تؤتى المكارم

ثم أخذ الأدب شعرا ونثرا يهبط حتى أمسى وصفا لشمعة أو نصحا غثا لتلميذ كسول.

وكذلك هبط العلم الديني وتقوقع رجاله في تخصصاتهم الدينية لا يمدون أنوفهم وراءها.

فعالم التجويد يعيش في عالم من الغنن والمدود، والفقيه في العبادات يحيا في ميدان من الاغسال والطهارات... وهكذا..

وقد كتب «الكسيس كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» يعيب الغارقين في تخصصاتهم الطبية، ويؤكد أن العلم بالإنسان لا يتم عن هذا الطريق.

ونقول نحن: إن العلم بالدين كله لا يتم عن طريق تجارة التجزئة، وأن الصورة الكاملة للإسلام إنما تتم على النحو السلفي الأول، وأن العقل الإسلامي

المعاصر يجب أن يرتفع إلى مستوى الشمول في القرآن الكريم حتى يستطيع إعادة بناء الأمة الواحدة التي لا تحد رقعتها على سطح الأرض خطوط الطول والعرض..

في القرآن المكي يقول الله تباركت أسماؤه: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾[105]..

ويقول: ﴿يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَاعْبُدُونِ﴾[106].

وعرف المسلمون بالبداهة أن أمة العقيدة لا يحصرها مكان، وأن إخوان العقيدة لا يحدهم جنس، وأن المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه، وأن المسلم إذا استبيح دمه على شاطئ المحيط الهادي في الفلبين يجب أن يتحرك له أخوة على شاطئ الأطلسي في المغرب والسنغال ونيجيريا، وأن المسلمين كما قال نبيهم تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم..

لكن يبدو أن التقوقع العقلي والنفسي ضرب صفحا عن هذه المعاني البينات، فإذا الأمة الكبرى يغار عليها من ها هنا وها هنا وتنتقص أطرافها.

والاتجاه الآن ماض إلى قلبها ولا يزال النيام يغطون!

ان عالمية الإسلام ليست في سعة الدائرة التي يعمل فيها فقط، وإنما هي في طبيعة توجيهاته وصياغة آياته، فالكتاب والسنة يخاطبان الإنسان حيث كان دون انحصار في زمان أو مكان! إنهما ارتباط بالفطرة، وحوار مع العقل البشري تحت أي سماء وإلى آخر الدهر.

ومن ثم ففهم الإسلام أو تدريسه على أنه نهضة عربية أو يقظة محلية أكذوبة كبرى!

---

(105) سورة الزمر 10.

(106) سورة العنكبوت 56.

وكذلك تناوله من زاوية خاصة، وعدم الوصول بمعانيه إلى أبعادها الأبدية العامة..!

وهناك ظروف أو بيئات تترك طابعها على العقل العادي، فالفلاح في قريته أو العامل في مصنعه، ينظر إلى الدنيا، وإلى المسافات بين أقطارها نظرة ضيقة.

أما سائق السيارة أو قائد الطائرة فإن نظرته إلى المسافات أرحب وجراءته على طيها أسرع، لأنه يألف التنقل والانطلاق.

والثقافة الإسلامية الأولى كانت تصنع عقولا من الطراز الطيار، أما هذه الثقافة في أيامها الأخيرة فهي تصنع عقولا تحسن الاعتكاف والانزواء..

ونشأ عن ذلك أن الاستعمار العالمي لما بدأ زحفه في آسيا ـ شرقا وجنوبا وشمالا ـ وبدأ زحفه في إفريقية من كل ناحية كان الإحساس بالألم يمر بكيان سري فيه الخدر، وتفاوت فيه الحس.

ولا يزال ناس من أهل العلم ـ كما يوصفون ـ لا يعلمون شيئا عن دولة فطاني في «تايلاند» مثلا، ولا يعلمون شيئا عن جماهير كثيفة من المسلمين تعيش في عشرات الدول الإفريقية ضائعة الهوية كاسفة البال قليلة الرجاء!

لماذا؟ لأن العقلية التي تشرح الأخوة الإسلامية، أو الولاء الإسلامي، أو عبادة الله الواحد في العالم الكبير الذي تعيش فيه ليست عقلية «الطيار» التي أشرنا إليها، وإنما هي عقلية فلاح محدود الوعي!

ما كان سلفنا كذلك، كان الأعرابي، الساذج يعترض الرسول ﷺ وهو على ناقته يطلب منه أن يعلمه الإسلام ويمسك بزمام الناقة حتى يسمع.. ويحدثه الرسول الملهم بما عنده، فيصنع منه إنسانا جديدا عامر القلب بأمجاد الألوهية وأضواء الوحدانية، والرغبة الهائلة في تطويع الكون كله لمراد الله، فلا ترى هذا

الأعرابي بعد ذلك إلا قذيفة تدك عروش المستبدين في فارس، أو الرومان، وتراه هو وإخوانه ينطلقون شرقا صوب المحيط الهادي وغربا صوب الأطلسي لهم جؤار بتسبيح الله وتحميده، وتلاوة الكتاب الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور...

إننا بحاجة إلى ثقافة تصنع نفوسنا على هذا النحو، إنها الثقافة التي صنعت أمتنا أولا والتي تنقذها أخيرا!!

أعرف أن هناك من يقول: هذا صوت متعصب شاذ يرجع بالعالم إلى حقبة من الزمان نقة منها! وأسارع إلى القول بأني لست شاذا إذ أرسل هذه الصيحة فقد أرسلها من قبلي «مستر ريجان» عندما رشح نفسه رئيسا للولايات المتحدة في المرة الأولى وفي الثانية، والرجل نصراني متعصب لدينه، وهو يحترم الكنيسة ويوقر تعاليمها ويدعو إلى جعل التعليم الديني جزءا من مناهج الدراسة في المراحل الأولى.. وقد أنذر في ترشيحه الأول بأنه على استعداد لشن حرب صليبية لترجيح كفة المبادئ التي يعتنقها.. أما في حملته الانتخابية الثانية فهو يكرر نفسه بقوة.

نشرت الأهرام للأستاذ أحمد بهاء الدين (8ـ9ـ1984) تقريرا نقتطف منه هذه العبارات «... لكن رونالد ريجان يخوض حملته الانتخابية الآن في أمريكا رافعا الإنجيل، قائلا بالحرف الواحد ـ كما سمعته من التليفزيون: إن في هذا الكتاب حل مشاكل البشرية...!! ويستتلي مستر ريجان معلقا على مبدأ فصل الدين عن الدولة قائلا: «إنه آن الأوان لإلغاء هذا الفصل وإعادة الدين إلى الدولة».

وسواء عادت الدولة في أوربا وأمريكا إلى الدين رسميا أو لم تعلن هذه العودة، فهي تأخذ بها في مظاهرة اسرائيل ضد العرب، وخذلان كل بادرة لظهور الإسلام، أو وحدة شعوبه، أو إحياء شرائعه، وهي توحي لسماسرتها في الشرق الإسلامي كي يضربوا الإسلام وحده!

أي ان الوحدة اليهودية حلال، والوحدة النصرانية حلال، أما الحرام فهو الوحدة الإسلامية!

هذه حصيلة من الأنباء التي تجمعت لديَّ خلال أيام معدودات أسوقها مجردة ليرى القارئ المسلم فيها رأيه.

في صحيفة كويتية عنوان كبير على ثلاثة أعمدة يقول: «ريجان يلجأ إلى آيات من الإنجيل للدفاع عن النفقات الحربية! طالبا مساعدة الكونجرس لتغيير مجرى التاريخ». وقبلها بأسبوع سمعت من صوت أميركا خبر ذهاب كاهن يهودي إلى البيت الأبيض ليبارك الرئيس في فترة رياسته الجديدة! وتجاوزت ذلك كله وأنا أقول: لا جديد أو لا عجب.!

بيد أني توقفت عند نبأ آخر خلاصته أن اسرائيل تريد تهجير المسلمين من جنوب لبنان، وإحلال الموارنة مكانهم حتى تطمئن إلى استقرار الأمن على حدودها الشمالية، فإن مواقف الكتائبيين في دعم اليهود وكره العرب واضحة! وهززت رأسي وقلت: لا جديد أو لا عجب..

وفاجأني خبر آخر، أن الحكومة الشيوعية في الحبشة تحرم الثائرين عليها من الغوث العالمي لمنكوبي الجفاف وتطاردهم إلى حيث يهلكون! ولما كان جمهور الثوار من المسلمين، فقد أحسست الألم لما يلقاه هؤلاء البائسون من شتات وضياع ثم قلت: لا جديد لا عجب!

سمعت خبرا آخر أفزعني وآذاني، أن نحو مائتي مسلم في بلغاريا قتلوا وهم يقاومون أوامر صدرت بتحريم الختان، وتحريم الذبح في عيد الأضحى، وتغيير الأسماء ذات الدلالة الإسلامية إلى أسماء أخرى!

إن الجرح الجديد حرك الجراح القديمة، فصحت: أما تنتهي هذه الآلام التي يتعرض لها إخوان العقيدة في كل مكان؟ وانتظرت أن أقرأ تعقيبا، أو تعليقا

على ما حدث فإذا الصمت الجبان، أو الجهل المتبلّد يسيطران على ألسنة وأقلام كثيرة! إن الانتماء الإسلامي وحده أمسى رجعية عند بعض الساسة! ذلك على حين يتحرك الإعلام العالمي كله إذا أحرج يهودي في روسيا، ويشتد الهياج لإهدار حقوق الإنسان! ترى مَنْ أَلُوم؟ هل أمتنا الإسلامية نائمة؟ أم مغمى عليها؟ إن خصومها يعربدون دون وجل! فليس هناك ما يخاف.

وبعد هذه الحقائق العارية يقول السفهاء من الناس عنا: إننا متعصبون، لأننا نحصن ألف مليون مسلم من الذوبان والضياع.

والفقه الذي يرشح أصحابه لخدمة الوحدة الإسلامية يحتاج إلى إضافات واجتهادات جديدة يستحيل أن تعجز عنها أصول الفقه عندنا.

إننا بلغنا الآن أكثر من ألف مليون نسمة، وهذا العالم الإسلامي الرحب الموار تلابسه أوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية بالغة التعقيد، وهو يحتاج إلى فقه إداري ودستوري ودولي حسن التقدير لمعاش المسلمين ومعادهم على سواء، ذكي الصلة بالعوالم غير الإسلامية التي تشاركنا الحياة على ظهر الأرض..

وقد تحدث العلماء القدامى في السياسة الشرعية، والتراتيب الإدارية بيد أن حديثهم كان قليلا، ويبدو أنهم أوجزوا حتى لا يصطدموا بالساسة، ويتعرضوا للمحن..

ومع إيجازهم فقد وقفوا عند حاجات عصرهم، وقد مضت قرون طويلة، وهذا الضرب من ثقافتنا الإسلامية لا يعدو وحاجات المسلمين حتى القرن السابع الهجري، فهل ينشط الفقهاء المسلمون ليجعلوا التشريعات الإدارية والدستورية والدولية مناسبة لمطالع القرن الخامس عشر الذي احتفلنا بمقدمه من بضع سنين؟

إن الألف مليون مسلم يتعرضون لامتحانات عالمية قاسية، بعضهم يدور في فلك: «الكومنولث» البريطاني، وبعضهم يذوب في فلك الاتحاد السوفيتي، وبعضهم يلهث ليلتحق بالسوق الأوربية المشتركة، وبعضهم يؤثر القومية الإفريقية! لعل هذه القومية الإفريقية أعرق وأسمى من الجامعة الإسلامية!!!! وهذه دول تنقل دستورها من شرق أوربا، وهذه دول أخرى تنقله من غرب أوربا...

والفقه الإسلامي واقف طوعا أو كرها في مكانه العتيق لا يقدم البدائل المطلوبة، وإذا كان بعض الساسة القاصرين يعترض هذا النمو الثقافي الحتم فهل ننتظر حتى تطوينا ردة العلمانية الحديثة؟

وهناك قضية تثار أمام الوحدة الإسلامية، تبدو للوهلة الأولى كأنها مشكلة، وبعد التأمل الجاد تتكشف عن مهزلة أي مهزلة! أعني قضية الأقليات التي افتعلها الاستعمار افتعالا يشف عن مكره السيء بالإسلام وأمته.

وهاكم نماذج لما يقع؛ توجد في السودان الجنوبي قلة نصرانية من آثار التبشير الذي انفرد بالمنطقة عشرات السنين، هذه القلة تبلغ 15 ٪ من سكان الجنوب، ومع أن معهم مسلمين يبلغون هذه النسبة فإن المخطط الاستعماري يريد انشاء دولة مسيحية هناك، ترغم المسلمين المساوين لهم على الارتداد أو الفرار، وتنفرد ببقية الوثنيين، وتتعاون مع الصليبية العالمية على بلوغ أهدافها في تنصير القارة القديمة..

وقد أخبرني أحد موظفي الري المصريين أنه عند إجراء إحصاء هناك أثبت طلبة أحد مكاتب تحفيظ القرآن الكريم على أنهم نصارى، وأضيفت عليهم أسماء أجنبية...!

ولقد عرى الرئيس جعفر النميري نفسه المؤامرة على جنوب السودان في كلمته لأعضاء المؤتمر الإسلامي الأول.. قال الرئيس:

«ستسألون على وجه اليقين عن مشكلة الجنوب، ستسمعون كذبا كثيرا وافتراء وأساطير ينسجونها حول الجنوب، الجنوب الذي زرعه الاستعمار قنابل وقت انفجارها وحدد آثار الانفجار وحسب بدقة نتائجه. وأستأذنكم لأحدثكم عن الجنوب قبل مائة عام وأكثر، كيف كان موقع القلب من السودان الموحد في قمة الثورة المهدية الإسلامية، وأنقل لكم هذه الفقرة من صفحة 163 من كتابي «النهج الإسلامي لماذا»

ـ الجنوب : عذاب التاريخ وهو يتراجع وما أقسي تراجع التاريخ. المهدي العظيم يقاتل البغي ويطارد الاستعمار يشعل ثورة السودان القومية العظمى. بحر الغزال تسانده ، بحر الغزال تبايعه. الدينكا والنوير تطردلبتون قائد الحامية، وتستقبل قائد المهدي كرم الله شيخ محمد كركساوي ليرفع راية المهدية رمز وحدة السودان فوق ربوع بحر الغزال.

سفاين المهدية تتقدم إلى مديرية خط الاستواء. قبائل المديرية تتقدمها تحكم الحصار حول الحاميات. تتساقط وتستسلم لينسحب دكتور أمين حاكم المديرية ويرفع عمر صالح مبعوث المهدي راية الوحدة القومية لتستظل بها مديرية خط الاستواء».

جاء الاستعمار أيها الأخوة والسودان بلد واحد وشعب واحد. الإسلام دينه، والوحدة شعاره، والاتفاق ديدنه لا عدوّ له إلا الاستعمار، ولا هدف له إلا القضاء عليه، فبدأ المستعمر في تخطيط جريمته الكبرى ضد الإنسانية.

فرض على أبناء الجنوب تغيير أسمائهم إلى أسماء كنسية. يوسف أصبح جوزيف وجمعة أصبح قاما وشول ودينق وماجوك وماكيج وأوان أضافوا إليها أو غيروها إلى وليم وجون وبيتر. طمسوا معالم الجنوب الأصلية. لم يكتفوا بمحاولة فصله من الشمال بل انتزعوه من ذاتيته الفطرية الطيبة.

وفي عام 1922 بدأ الاستعمار في تخطيط سياسة الجنوب التي استمرت حتى 1946 فأقفلوا الجنوب في وجه ابن الشمال الشقيق، وسارت عملية تنصير الجنوب وإشعال الفتنة فيه سيرا حثيثا لينفجر اللغم في سنة 1955.»

ـ هذا ما حدث في السودان، وما عرَّاه الرئيس النميري نفسه!!

وفي لبنان يريد الموارنة وهم أقل من خمس السكان إقامة دولة مارونية ذات طابع مسيحي يخضع لها سائر الطوائف وجمهرتهم من المسلمين، والمفاوضات تجري لكي يقنعوا بنصف السلطة ولكنهم يرفضون!

وقد شاع تزوير الإحصاءات في أقطار كثيرة يبدو النصارى أضعاف عددهم من الناحية المادية، وأضعاف ذلك من الناحية الثقافية، وبذلك يتم دفن المسلمين في استرسالهم الغافل، ثم يقال لكل يقظة إسلامية إن الجماهير الكثيفة من النصارى، تأبى الإسلام وشريعته ووحدته!!

والذين يأبون ذلك نفر لا يزيدون عن 6 ٪ من تعداد السكان في أكبر البلاد العربية، فكيف بغيرها؟؟

إنه أمر يدعو للحيرة، ولكنهم قالوا: إن القانون لا يحمي المغفلين! ومن خيري على أكلك بجوع حين يلقاك. ومن أمثلة العرب الأقدمين، إستنوق الجمل! وإن البعاث بأرضنا يستنسر!!

وقد لاحظنا أن المعاهدات الثقافية تعقد في هذا العصر لدعم المبادئ والآداب واللغات الأجنبية.

وتكاد القارة الإفريقية تكون مقسومة بين الدول الناطقة بالفرنسية، والناطقة بالإنجليزية...

فما وضع اللغة العربية في قارة أغلب سكانها مسلمون؟

إن لغة الوحي هي الدعامة الكبرى للوحدة الإسلامية، ومع موت هذه اللغة سيموت التعليم والتفاهم والرباط الأدبي المشترك، وستنشأ أجيال منكرة لتراثها وتقاليدها، بل عباداتها وشعائرها...

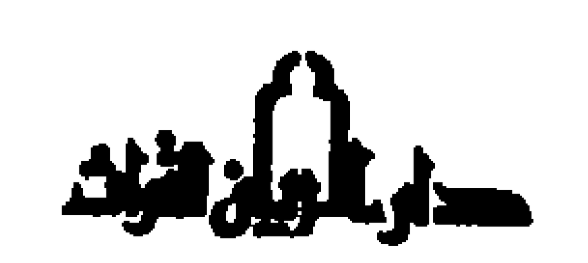
ومن أجل ذلك يجب أن نقاتل دون اللغة العربية، وألا نأذن أبدا بدحرجتها لتكون لغة ثانية،، ثم ثالثة ثم لغة ميتة... يتم بعدها تكفين الكتاب والسنة...!!

إن الناس من حولنا يتجمعون على عقائدهم ويتنادون بشعاراتها...

وإذا سمحنا لأسباب الفرقة أن تنال منا، فلا مستقبل لنا، لأننا لن نكون...

* * *

الفهـــرس



رقم الايداع ٨٧/٣٥٨٣

مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية

هــذا الكتــاب

أمانة فى عنقك ، أخـى المسلم ، فأرجو أن تقـرأه باهتمام ، وتفكر فى مصـير أمتك ، وتعمل ـ ما أمكنك العمـل ـ لنفض الغبار عـن وجهها الكالح ، فمستقبل الاسلام رهين ـ بعد مشيئة الله ـ بجهود أبنائه لا بارادة أعدائه ، فالمسلمون لم يهزموا قط ولن يهزموا أبـدا الا لخلل فى صفوفهم هم .

فنحن مطالبون بازالة الخلل من صفوفنا ... مطلوب منا فقط توحيد الصف ، بماذا ؟ بنعمة اللـه علينا ... « واذكروا نعمة اللـه عليكم اذ كنتم أعداء فألف بـين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ... » .

متى قال ربنا جل جلاله هذا الكلام ؟

قاله مباشرة بعد قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ... »

والله الهادى الى سواء السبيل

الناشر

مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية